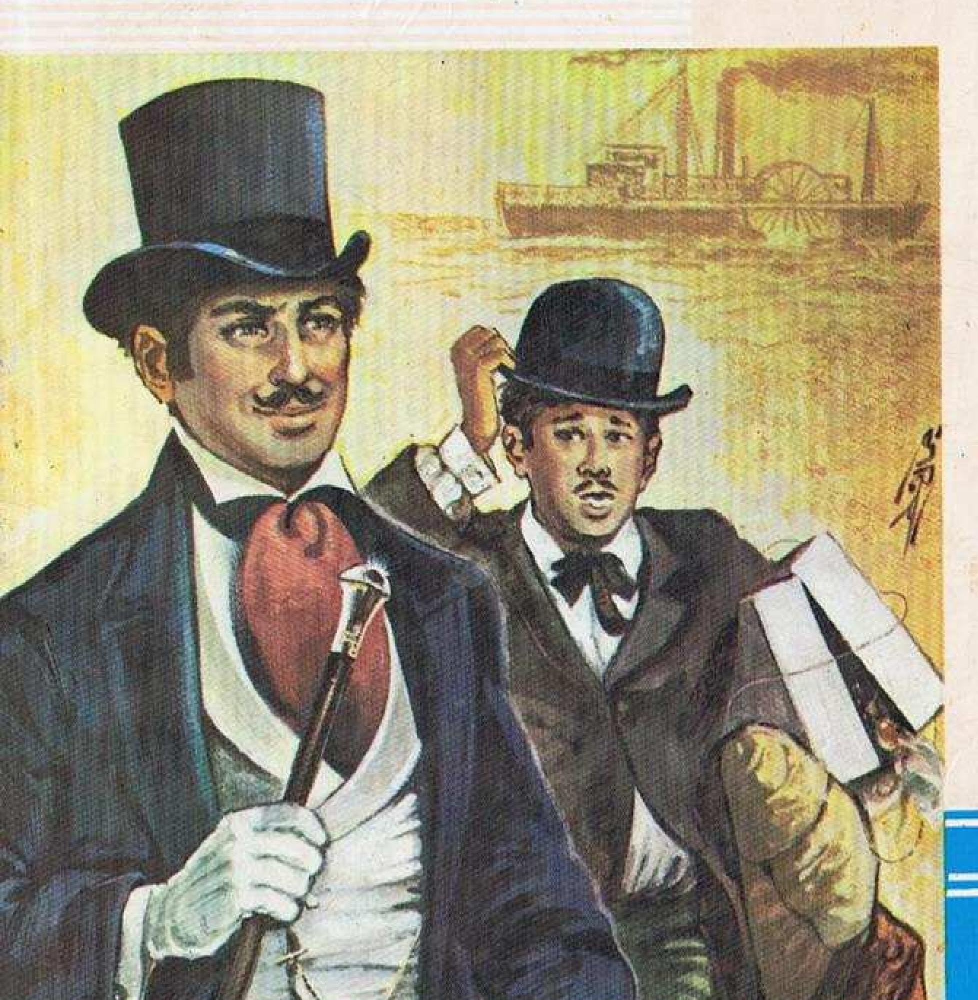
حول العالم في ثمانين يوماً

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



دار العلم للملايين
بيروت

حول العالم في ثمانين يوماً
دار العلم للملايين

هذه الرواية

- حكاية رهان عجيب يتعهد بطل الرواية ، بموجبه ، ان يدور حول العالم في ثمانين يوما ...

- رواية حافلة بالمغامرات والأهوال والعجائب تعطيك صورة تكاد تكون خيالية عن الدنيا كما كانت في القرن التاسع عشر !

- هل استطاع البطل أن يفوز بالرهان في اللحظة الأخيرة ؟ اقرأ هذه الرواية الرائعة التي ترجمت الى جميع اللغات لتعرف سر ذلك كله !

المكتبة العالميّة
للفتيان والفتيات

حول العالم في ثمانين يومًا

تأليف
جول ڤِرْن

تعريب وتلخيص
أكرم الرافعي

دار العلم للملايين

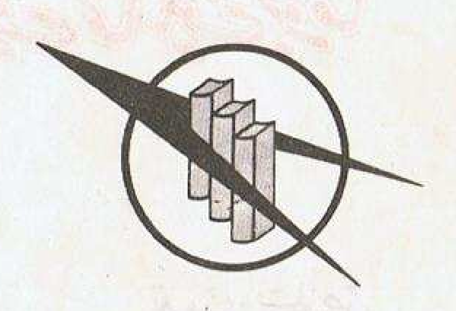
بيروت

دار العلم للملايين

مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر

شارع مار الياس - خلف ثكنة الحلو
ص.ب ١٠٨٥ - تلفون : ٣٠٤٤٤٥ - ٨١٦٦٣٩
برقيا : ملايين - تلكس : ٢٣١٦٦ ملايين

بيروت - لبنان



الطبعة الأولى ١٩٧٢

الطبعة التاسعة

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٨٤

١ . فيليس فوغ وخادمه باسبارتو

في عامِ ١٨٧٢ كان يقطُنُ في المنزل، الذي يَحْمِلُ رقم ٧ في شارع سافيلرو ، بحيّ « برلنغتون غاردنز » اللندني ، والذي توفي فيه الخطيبُ والكاتبُ الإنكليزيّ الشهيرُ شيريدان ، نبيلٌ يدعى فيلْيَس فوغ . وكان السيّد فيليّس فوغ هذا من أبرز الأعضاء في « نادي الاصلاح » ، رغم أنه لم يكن يحاولُ بأيّ شكل أن يلفتَ إليه الأنظار .

إذن حلّ محلّ ذلك الخطيبِ العظيمِ ، الذي يُعَد مَفْخَرَةً لانكلترا ، هذا السيد فيلْيس فوغ الذي كان غريبَ الأطوار ، يحيط بشخصه وحياته الغموضُ . فكلُّ ما كانَ يَعْرِفه النّاسُ عَنْهُ أنهُ رَجُلٌ بالغُ اللّطفِ والأدب ، وأنه من أجمل رجالِ الطبقة الأرستقراطية . كان يشبه اللورد بايرون ، الشاعر الانكليزي الكبير، إلى حد كبير من حيثُ الوجه ، وكان ذا شباب دائم ، حتى ليخيّل إلى من يعرفهُ أن الشيخوخةَ لن تقْرَبَه حتى لو عاشَ ألفَ سنة .

كان السيد فيليس انكليزياً ، دون ريب ، ولكن قد لا يكون أصله من لندن بالذات . ولم يسبق لأحد أن رآه في « البورصة أو المصارف » ، كما أنه لم يكن يتردد على المرفأ ، ولم يعرف عنه أنه امتلك سفينة من السفن ، أو تولى منصباً من المناصب ، أو كان محامياً أو صناعياً أو تاجراً أو مزارعاً . كل ما كان يعرف عنه أنه عضو في « نادي الإصلاح » وحسب .

وقد يتساءل المرء : كيف لرجل غامض على هذا النحو أن يحظى بعضوية هذا النادي ، الذي يتمتع باحترام لا حد له ؟ .. الجواب على هذا أنه دخل النادي بوصية من السادة « بارنغ إخوان » ، الذين كان له في مصرفهم حساب مفتوح . وقد كانت جميع التحويلات التي تأتي باسمه تصرف في الحال . إذن فقد كان فيليس غنياً .. ولكن كيف جمع تلك الثروة ؟ .. لم يكن أحد يعرف ذلك ، كما لم يكن يليق بأحد أن يسأله كيف توصل إلى جمع ثروته . ولم يكن السيد فوغ مبذراً ، ولكنه لم يكن بخيلاً كذلك ؛ ففي المواقف التي تتطلب البذل والمعونة ، لم يكن يتأخر عن عمل الخير ؛ بل كان كثيراً ما يفعل ذلك في السر .

بكلمة واحدة كان هذا الرجل لا يطلع أحداً على دخائله ، وكان قليل الكلام ، لا يقول إلا ما هو ضروري . ومما يزيد في غموضه أن حياته اليومية كانت من الدقة الحسابية بحيث كان خيال الناس يبحث في ما وراء الأعمال الظاهرة لهذا الإنسان .

وما كان يباريه أحد في معرفة خريطة العالم ، إذ لم تكن هناك بقعة من بقاع الأرض ، إلا ولديه معلومات دقيقة عنها .. فهل سافر في حياته كثيراً ؟ هذا شيء محتمل ، ولكن الذي لا شك فيه هو أنه لم يغادر لندن منذ بضع سنوات . بل إن المطلعين أكثر من غيرهم على حياته يقولون إنهم لم يروه في أي مكان غير النادي ، الذي كان يسلك إليه أقرب الطرق من داره . وكان يقضي وقته في مطالعة الصحف ولعب الهويست ، وهذه اللعبة الصامتة كانت ملائمة لطبعه إلى أبعد الحدود .

وكان يربح في أغلب الأحيان ، ولكن مكاسبه لم تكن تدخل جيبه ، بل كانت تغطي جزءاً كبيراً من ميزانية الأعمال الخيرية .

فقد كان إذن يلعب من أجل اللذة لا من أجل الربح .

وكان اللعبُ في نظره عبارةً عن كفاح للتغلب على عقبة ما ..ولكنه كفاحٌ لا يتطلب الحركةَ والانتقال وتحمّل التعبِ والعناء .. وهو الشيء الذي يتمشى مع مزاجه الخاص .

وكان فيليَس فوغ يعيشُ وحدَه في منزلِه « بسافيل رو » حيث لم يكن لأحد أن يدخل . فلم يكن له امرأة ولا ولدٌ ولا أقاربُ ولا أصدقاء . وكان يكتفي بخادم واحد ، لأنه كان يتناول غداءَه وعشاءَه في النادي في أوقات معينة لا تتغير ، وعلى نفس المائدةِ ، التي لم يكن يدعو أحداً إليها .

وكان يعودُ إلى منزلِهِ في منتصفِ الليل تماماً ، ليأوي إلى فراشه .

كان مجموعُ الوقتِ الذي يقضيهِ في دارِه عشرَ ساعات من الأربعِ والعشرينَ ساعةً .

وعلى هذا فقد كانت أعمالُ خادمِه قليلةً بالرغم من أن البيتَ لم يكنْ ينقصُهُ شيءٌ من الرفاهية . ولكنَّ دقةَ السيد العجيبةَ كانت تفرضُ على الخادم مسؤولية خاصة .

ففي ذلك اليوم ، الذي تبدأ قصتنا منه ، وهو الثاني من تشرين الأول ، طرد خادمَهُ جيمس فورستر ، لأنه

اقترفَ ذنباً عظيماً بالنسبة إليه ، إذ حمل إليه ماءً ساخناً للحلاقة في درجة ٨٤ فارنهيت بدلاً من ٨٦ . ولكن كان على الخادم أن ينتظر وصولَ خلَفِه ما بين الحادية عشرةَ والحاديةَ عشرةَ والنصف ليغادرَ المنزل.

وجلس السيد فوغ ينتظرُ وصولَ الخادمِ الجديد ، وهو ينظر من حين إلى آخر إلى ساعةِ الحائط المُعقّدة التي كانت تسجّلُ الساعاتِ والدقائقَ والثواني ، وتشيرُ إلى الأيام وأجزاء السنة ، ففي الساعة الحاديةَ عشرةَ بالضبط كان من عادتِهِ أن يتوجّه إلى النادي .

في تلك اللحظة وصلَ الخادمُ الجديد ، وهو شابٌ فرنسي يدعى جان باسبارتو (أي المفتاح العام) . وقد لازمه اللقبُ لأنه حسَنُ التصرف . وكان صريحاً مع السيد فوغ ، فأخبره بأنه سبق له أن زاول أعمالاً مختلفة ، فقد كان مُغنياً جوّالاً ، وبهلواناً في سيرك ، ومعلّم تربيةٍ بدنية ، ثم أصبح رقيباً في « الإطفائية » .

وبعد ذلك غادر فرنسا إلى انكلترا حيث عملَ خادماً . وقد سمعَ أن السيد فيليس فوغ — أدقَّ الناس في المملكة المتحدة وأبعدَهم عن التنقل — يطلب خادماً ، فسعى إليه رغبة في الهدوء والاستقرار .

قال له السيد فيليس :



فيليس وخادمه

« لقد أوصاني بك من لا أشُكُّ في كلامهم ..
هل تعْرِف شروطي ؟ »

– « نعم . يا سيدي ! »

– « كم الساعةُ معك الآن ؟ »

– « الحادية عشرة واثنتان وعشرون دقيقة ! »

– « ساعتُك متأخرة ! »

– « عفواً ، يا سيدي ! هذا غير ممكن ! »

– « إنها متأخرة أربعَ دقائق .. هذا لا يهم .. ولكنَّ عليك أن تنتبه إلى الفرْق .. إذن فأنت في خدمتي اعتباراً من هذه اللحظة . أي من الساعةِ الحادية عشرةَ وتسعٍ وعشرينَ دقيقةً من يوم الأربعاء . الثاني من شهر تشرين الأول عام ١٨٧٢ ! » .

بعد هذا نهض السيد فيليَس فتناولَ بيدهِ اليسرى قُبّعته ، ووضعَها على رأسِهِ بحركةٍ آليةٍ ، ثم خرج دون أن يُضيف كلمةً واحدة .

٢. باسبارتو يحقق حلمه

قال باسبارتو عندما خرجَ سيّدُهُ ، وخلّفَهُ وحده في المنزل : « في الحق أنني رأيت عند السيدة توسّو شخوصاً

فيها من الحياة أكثرُ من سيدي الجديد ! »

والسيدة توسو هذه كانت تَصنعُ تماثيلَ ووجوهاً من الشمع لا يُعْوِزُها سوى الكلام لتكونَ تامّةَ الحياة .

وكان باسبارتو قد لاحظَ سيّدَهُ بدِقّة ، خلال الدقائقِ القليلة التي قضاها في مواجهته . ومن هذه الدراسةِ السريعةِ تبدّى له أن هذا السيد يناهزُ الأربعين من العُمر ، وأن وجهَهُ يتميزُ بالنُّبْلِ والوسامة ، وأنه طويلُ القامةِ أشقرُ الشعرِ ، كثيفُ السالفينِ ، أملسُ الجبهة ، لا خطوطَ على صُدْغَيْه . وهو إلى جانب هذا هادئُ الطبعِ ، صافي النظرات ، أجفانُهُ ثابتةٌ لا ترِفّ ولا تتحرك .

إنه يمثّلُ النموذجَ الكاملَ للرّجلِ الانكليزي المشتهر ببرودة الطبع .

وكانت أطرافه تنمُّ عن الدّقة البالغة التي يتحرّاها في كل شيء . والواقعُ أن الأطراف ، لدى الإنسانِ والحيوان عامةً ، ذاتُ دلالةٍ واضحةٍ على السلوك الفرْديّ .. كانت دِقّته دِقّةً رياضية ، لا تخطىء ، وكان هو من ذلك الصنفِ من الرجال ، الذين لا يَعْجَلون ، والذين يكونون دائماً على استعداد ، وإذا هَمّوا بأمرٍ فلكلِ حركةٍ من حركاتهم ولكل خطوةٍ من خطواتهم حسابها

إذا اتجهوا نحو هدفٍ قَصَدوه من أقرب الطرق .

أما باسبارتو فقد كان باريسياً بكل معنى الكلمة . وقد سَلَخَ خمسةَ أعوامٍ في انكلترا يفتّشُ عن سيّدٍ يستطيعُ أن يرتبطَ به بصفةٍ نهائية . وهو شابٌّ في حدود الثلاثين ، جذّابُ الشكْلِ ، طيّبُ القلب ، مستعدٌّ لأداء الخدماتِ في كلّ لحظة. كان ذا عينين زرقاويْن ، ووجهٍ أحمرَ ممتلىءٍ ، وكان عريضَ المَنْكِبَيْن ، متين البُنيان ، مفتولَ العضلِ ، يتمتّعُ بقوةٍ هِرَقلية (جبّارة) .

من هذا يتجلّى أن هذا الشابَّ المُنْفَتح كان بعكسِ سيده من حيثُ الطبعُ ، فهل سيتّفقانِ معاً ؟

التجربةُ هي التي ستبيّنُ ذلك . على أن باسبارتو ، الذي قَضى حياةً مضطربةً في البداية ، متنقلاً من عملٍ إلى عمل ، كان يَنْشُدُ الاستقرارَ قبلَ كلّ شيء .

لقد سبَقَ له أن خدَمَ في عشرةِ منازلَ انكليزية لم يستطع أن يحقق فيها ذلك الهدف ، لأن أصحابها كانوا إما من المغامرين أو من كثيري الأسفار .

عندما أصبح باسبارتو وحدَهُ في الدار راحَ يطوفُ فيها ليطّلعَ على كلّ شيء . ولكم سُرَّ بها إذ رآها نظيفةً منظمةً سهلة الخدمة. وسرعان ما وصل إلى الحُجرة

المخصصة له في الطبقة الثانية ، فنالت إعجابه .

وكانت هناك ساعة حائط كهربائية فوق المدفأة مضبوطة على الساعة الموجودة في غرفة السيد فيليس . وكانت فوقها مذكّرةٌ صغيرةٌ تبيّن نظامَ الخدمة ، الذي وجد جان متعةً في مراجعة بنوده وحفظها ، لكي يُطبّقها بحذافيرها . وفي خزانة الملابس وجدَ أن لكلّ ثوب رقماً معيناً ، وأن لها ، مجتمعةً سجلاً منظّماً تُقيّدُ فيه تواريخُ إرسال هذه الأثواب إلى الكيّ وتواريخُ ورودها ، كما تحدّد فيه الفترات التي يجبُ أن يُقدّم فيها كل ثوب، حسَبَ الفصولِ والأحوال الجوية .

ولم يكُنْ في الدارِ كتبٌ لا يحتاج إليها السيد فيليس، إذ أن في نادي الإصلاح مكتبَتين إحداهما للمؤلفاتِ الأدبيةِ والثانية لكتب القانون والسياسة .

وفي غرفة نوم السيد كان يقومُ صندوقٌ حديدي محصّنٌ من الحريق والسرقة . ولم يكن هناك أثرٌ لأيّ سلاحٍ من أيّ نوع .

قال باسبارتو في نفسه : « هذا ما كنت أتمناه ! أعتقد أنني سأكون على أتم وِفاقٍ مع السيد ! »

٣. حديث قد يكلف الكثير

خرج فيليس فوغ من منزله في الساعة الحاديةَ عشرةَ والنصف . وبعد أن خطا خمسمائة وخمساً وسبعين خطوةً ، دون زيادة أو نقصان ، وصلَ إلى نادي الإصلاح . وهو بناءٌ شامخٌ متّسعٌ في شارع « بول — مول » ، لم يكلّفْ إنشاؤه أقلّ من ثلاثةِ ملايينِ جنيهٍ إسترليني.

وفور وصوله دخل إلى المطعم ، حيث جلسَ في مكانه المعهود ، وتناول غداءه . وفي الساعةِ الثانيةَ عشرةَ ، وسبعٍ وأربعين دقيقةً ، ترك المائدة وتوجه إلى البهو الكبير ، حيث قدّمَ إليه أحدُ الخدمِ صحيفةَ التيمس، التي لم تكن قد فُتحت بعد فراحَ يقرأها بعناية وقد شغلتْه هذه القراءةُ حتى الساعة الثالثة وخمس وأربعين دقيقةً . بعد ذلك تناول صحيفةَ « الستاندرد »، وظل يقرأ فيها حتى وقت العشاء .

ولما انتهى من العشاء عاد إلى البهو في السادسة إلا ثلثاً ، حيث عكف على قراءة « المورننغ كرونيكل » . وبعد نصفِ ساعة أقبل أعضاء النادي ، واقتربوا من المدفأة التي كانت تشتعل فيها نارُ فحمٍ حجريّ .

كان أولئك السادةُ هم رفاقَ فيليس فوغ في لعبة الهويست ، وكان بينهم المهندسُ أندرو ستيوارت وصاحبا

المصارف جون سوليفان وصموئيل فالنتان ، وصاحب مصنع الجعة توماس فلاناغان ، والسيد غوتييه رالف ، أحد أعضاء مجلس الإدارة بمصرف إنكلترا . وكان هؤلاء الرجال من كبار الأثرياء والوجهاء ، كما كانوا من أبرز أعضاء النادي الذي يضم علية القوم في المجتمع الانكليزي ، وفي عالم الصناعة والمال .. قال توماس فلاناغان :

« ماذا تم في مسألة السرقة ، يا رالف ؟ »

اندرو ستيوارت : « أعتقد أن المصرف لن يستعيد ماله ! »

غوتييه رالف : « أعتقد ، على العكس، أننا سنقبض على السارق .. فلقد أرسل عدد من أنشط مفتشي الشرطة إلى مختلف الموانيء في أميركا وأوربا ، فكيف سيفلت هذا السيد من أيديهم ؟ »

اندرو : « إذن فقد عممت أوصاف السارق ؟»

رالف : « قبل كل شيء يجب أن تعلموا أن هذا الرجل ليس سارقاً ! »

أندرو : « كيف ؟ .. ماذا يكون إذن من يسرق خمسة وخمسين مليوناً من الجنيهات ؟ ! »

— « إنه ليس من اللصوص المحترفين ! »

سوليفان : « هل يكون صناعياً ؟ » .

فتدخل فيليس فوغ قائلاً :

« إن جريدة « المورننغ كرونيكل » تؤكد أنه سيد محترم ! »

كانت هذه الحادثة تشغل الصحافة البريطانية منذ ثلاثة أيام . ففي التاسع والعشرين من أيلول أخذت ، من أمام أمين الصندوق بمصرف انكلترا ، ربطة من الأوراق المالية بمبلغ خمسة وخمسين مليون جنيه . والعجيب في الأمر أن سرقة هذا المبلغ الضخم تمت بينما كان أمين الصندوق مشغولاً بتسجيل مبلغ ثلاثة شلنات وستة بنسات . ولكن لتفسير السهولة التي استولى بها السارق على تلك الثروة دون أن يتنبه إليه أحد ، لا بد من الإشارة إلى أن هذا البنك الكبير يثق بالجمهور إلى أبعد الحدود ، ويهتم بكرامة زبائنه ، فليس فيه لا حرس ولا حواجز ، بل إن الذهب والفضة والأوراق المالية معروضة هنا وهنالك ، بحيث يستطيع أي واحد أن يلتقط ما فيه النصيب أثناء مروره . بل إن أحدهم روى أنه رأى ذات يوم سبيكة ذهبية تزن ثمانية أرطال ، فأخذها وراح يتفحصها ، ثم نقلها بعيداً إلى أحد الممرات المظلمة ولم يعدها إلا بعد نصف ساعة ، فوجد أن

الصرّاف لم يرفع بعدُ رأسَهُ عما بين يدَيْهِ من أوراق .

غير أن الأمورَ لم تستمرّ على هذا النحوِ في التاسع والعشرينَ من أيلول ، فالذي أخذ ربطةَ الملايينِ لم يُعِدْها إلى مكانها .

وهكذا اتُّخذت كافّةُ الاجراءاتِ لتطويقِ السارق ، فأرسِلَ مفتشونَ إلى الموانيء الهامةِ في ليفربول ، وغلاسكو والهافر ، والسويس ، وبرنديزي ، ونيويورك ... ، وأعلِنَ عن جائزةٍ مالية ، لكلٍّ من يقبض على السارق ، مقدارها ألفا جنيهٍ بالإضافة إلى خمسةٍ في المئة من المبلغ الباقي مع السارق .

وما جاء في صحيفة « المورننغ كرونيكل » أن السارق لم يكن ينتمي إلى أي من عصابات السطو في انكلترا . ولكنها ذكرت أن سيداً أنيقَ المظهر ، له سِماتُ النبل شُوهِدَ ، في التاسع والعشرين من أيلول ، يتنقل في قاعة الصَّرْف ببنك انكلترا ، أي في مَسْرح الجريمة . وقد عُمِّمَت أوصافه على جميع المراكز . وليس غريباً أن تهتم الصحافةُ بالأمر ، نظراً لضخامةِ المبلغ المسروق ، كما أنه ليس من الغريب أن يجري الحديثُ حولَهُ في نادي الإصلاح ، لأن أحدَ مديري المصرف عضوٌ في النادي .

قال اندرو ستيوارت :

« ما زلت مصرّاً على الاعتقاد بأن الحظّ في جانب السارقِ الذي لا بد أن يكون على جانب كبير من الذكاء والحذق ! »

رالف : « دعك من هذا ! .. ليس أمامَهُ بلدٌ واحد يستطيع أن يأويَ إليه ! »

— « مثلاً ؟ »

— « إلى أين تريد أن يذهب ؟ »

— « لست أدري .. ولكن الأرض واسعة ! » .

قال فيليس فوغ بصوت منخفض :

« كانت كذلك في الماضي ! » ثم أضاف وهو يقدم الورق إلى فلاناغان :

« إقطع ، يا سيدي ! »

ستوارت : « ماذا تعني ؟.. هل تكون الأرض قد ضمُرت مثلاً ، ونقصَ حجمُها ؟ ! »

رالف : « بالتأكيد ! .. أنا من رأي السيد فوغ ! .. أجل ! إن الأرض قد صغُرت كثيراً ، فقد أصبحنا ندور حولها بسرعة تفوق ، بعَشْرِ مرّات ، تلك السرعةَ التي كنا نقطعُها فيها منذ مئةِ عام ..

وهذا ما يجعل مهمة البحث عن السارق من أسهل المهام ! »

ولدي انتهاء أولِ دورةٍ من اللّعب ، عاد ستيوارت يقول :

« الحقُ أنك قد استخدمتَ حجّةً مضحكةً ، يا سيد رالف ، لتُثبت أن حجمَ الأرضِ قد نقص ! .. أو يتضاءلُ حجمُها الماديّ إن كنا قد أصبحنا ندورُ حولَها في ثلاثة أشهر ؟ ! »

فيليس فوغ : « في ثمانين يوماً فقط .. أرجوك ! »

سوليفان مؤيّداً : « هذا صحيح : فقد بينت ذلك « المرننغ كرونيكل» على النحو التالي :

من لندن إلى السويس بالقطار والسفينة ، سبعة أيام ، من السويس إلى بومباي، بالسفينة ، ثلاثة عشَرَ يوماً ، من بومباي إلى كلكوتا ، بالقطار ، ثلاثة أيام ، من كلكوتا إلى هونغ كونغ ، بالبحر ، ثلاثة عشَرَ يوماً ، من هونغ كونغ إلى يوكوهاما ، بالسفينة ، ستة أيام ، من يوكوهاما إلى سان فرانسيسكو ، بالسفينة ، اثنان وعشرون يوماً ، من سان فرانسيسكو إلى نيويورك ، سبعة أيام بالقطار ، من نيويورك إلى لندن ، عن طريق البحر والسكة الحديدية ، تسعة أيام ، فيكون المجموع ثمانين

يوماً ! »

فصاح ستيوارت :

« ولكنك لم تُقِمْ أيّ حسابٍ للطقس الرديء والرياح المعاكسة ، وحوادث الغرق وخروج القطارات عن الخطوط ... »

فيليس فوغ : « كل هذا داخلٌ في الحساب ! »

ستيوارت ملتقطاً الورق: « من الناحية النظرية هذا صحيح ، أما التطبيقُ فشيءٌ آخر ! »

هنالك أعلن فيليس فوغ أنه مستعدٌ للقيام بهذه الرحلة، وراهنَ على ذلك بنصفِ ثروته ، أي بالمبلغ المُودَع في مصرِف « بارينغ إخوان » ، وقدْرُهُ عشرون ألف جنيه استرليني .

صاح سوليفان :

« ولكن .. هذا مبلغٌ كبيرٌ قد تخسره إذا حدَثَ شيءٌ غيرُ منتظَر ! »

— « إن اللامُنتظَر لا وجود له ! »

— ولكنّ الفترة المذكورة هي حدٌ أدنى ، يا سيد فوغ ! »

— « إن الحدّ الأدنى يكفي لكل عملٍ إذا استُخدِم كما ينبغي ! »

— « دَعْ عنك هذا ! .. إنما الأمرُ مُزاحٌ في مُزاحٍ ! »

— « إن الانكليزيَّ الأصيلَ لا يعرفُ المزاحَ عندما يتعلقُ الأمرُ بمسألةٍ جِدّيةٍ كالرهان : إني أراهنُ بعشرين ألفَ جنيه . على أنْ أدور حولَ الأرضِ في ثمانينَ يوماً على الأقلّ . أي ألفٍ وتسعمئةٍ وعشرينَ ساعةً ، أو مئةٍ وخمسةَ عشرَ ألفاً ومئتيْ دقيقة .. هل تقبلون ؟ »

قال السادة ستيوارت وفالنتان وسوليفان وفلاناغان ورالف ، بعد أن تداولوا فيما بينهم :

« نعم . قبلْنا ! .. ومتى تبدأ رحلتكَ ؟ »

— « هذا المساء بالذات ! .. سأركبُ قطار دوفر ، الذي يقوم في الساعة الثامنةِ وخمسٍ واربعينَ دقيقة ! .. اليوم هو الاربعاء الثاني من تشرين الأول .. سأعود إلى لندن يوم السبت (وكان قد رجع إلى مفكرته) في الحادي والعشرينَ من كانون الأول ، وسأكون في هذه القاعة في الساعة الثامنة وخمسٍ واربعين دقيقةً من مساء ذلك اليوم ، وإذا لم أحضُرْ فإن العشرينَ ألفَ جنيه ستكون من حصّكم .. وهاكم تحويلاً بالمبلغ ! »

وفي الحال حُرّر محضرٌ بذلك ووقّعهُ الجميع . وكانت الساعةُ تدُقُّ السابعةَ فعرَضَ عليه زملاؤه أن يوقفوا اللّعبَ ليتسنى له أن يستعدّ ، فقال :

« أنا دائماً على استعداد ! »

٤ . صدمة باسبارتو

في الساعةِ السابعةِ وخمسٍ وعشرين دقيقةً نهض فيليس فوغ عن مائدة اللّعِب . بعد أن ربح نحوَ عشرينَ جنيهاً ، وتوجّه إلى منزلِه . أما باسبارتو ، الذي كان قد درَسَ برنامج سيّده بدقة ، فقد تولاه الدّهَشُ عندما رآه يعودُ في غير موعده .

صعدَ فيليس إلى غرفتِه أولاً ، ثم نادى باسبارتو ، فلم يَرُدّ عليه . إذ المفروضُ أن السيد لم يَعُدْ بعدُ . وعاد يناديه مرّةً أخرى . فلما حَضرَ قال له :

« هذه هي المرة الثانية التي أناديك فيها ؟ ! »

— « ولكنّ الساعةَ لم تبلُغْ بعدُ الثانيةَ عشرة ! »

— « أنا أعلمُ ذلك.. ولست ألومُك .. ولكننا سنتوجّه بعدَ عشرِ دقائقَ إلى دوفر ثم إلى « كاليه » !

— « أوَ يريدُ سيدي السفر ؟ »

— « سنقوم برحلة حول العالم .. سيكونُ ذلكَ في ثمانينَ يوماً .. لهذا ليس لدينا لحظةٌ نُضيعُها ! »

ففغر باسبارتو فاه ، وقال :

« والحقائب ؟ »

— « لن نحملَ معنا حقائبَ ، بل كيساً فيه قميصانِ من الصوف وثلاثة أزواجٍ من الجوارب لي ، ومثلُها لك ، وسنشتري في الطريق ما نحتاجُ إليه .. ولكنْ عليك أن تنتعلَ حذاءً متيناً ! »

ولما تأهّبَ الاثنان ، وضع فيليس رزماً من الأوراق المالية التي تُصْرَف في كل مكان ، ثم سأل خادمَهُ :

« هل نسيت شيئاً ؟ »

— كلا ، يا سيدي ! »

في الساعة الثامنةِ والثلث وصلتِ العربةُ بفيليس وخادمه إلى مدخل المحطة ، فهبطا . وتقدمت من السيد امرأة فقيرة تحمل طفلاً على ذراعها ، فأعطاها ما ربحه من لُعبة الهويست . ثم دخل الاثنان إلى الفِناء ، فأرسل فيليس خادمه لشراء تذكرتين في الدرجة الأولى إلى باريس ثم التفت فاذا به وجهاً لوجه أمام زملائه الخمسة ، فقال لهم :

« هأنذا مسافرٌ ، أيها السادة ، وفي إمكانكم لدى عودتي أن ترجعوا إلى جواز سفري لتروْا التأشيراتِ وتتأكدوا من أنني قمت بالرحلة حسب الاتفاق ! »

فقال رالف :

« إننا واثقون بكلامك ، فلا حاجةَ بك إلى الحصول على تأشيراتٍ ! »

— « هذا أفضل ! »

وركب فيلَيس وباسبارتو القطارَ الذي تحرّكَ في الساعةِ التاسعة إلا ثلثاً .

كان الليلُ فاحماً وكان يتساقطُ مطرٌ خفيف ، وقد جلس فيلْيَس صامتاً ، أما باسبارتو فقد كان يضمُّ إليه الكيسَ الذي يحوي عشرينَ ألفَ جنيه . وفجأةً ندّت عنهُ صيحةُ رعبٍ . فسأله فيلْيَس :

« ماذا حدث ؟ »

— « الذي .. حدث .. أنني نسيت الغاز مشتعلاً ! »

فأجابَهُ السيد بجفاف :

« سيظل مشتعلاً على حسابك ، يا بُنَيَّ ! »

٥ . وقع الحدث في لندن

ما إن غادر فيلْيَس فوغ العاصمة حتى انتشرَ نبأُ هذه الرحلة المثيرة ، والرهانِ العجيبِ في النادي ، ثم وصل إلى الصحف وأصبح حديثَ الناس في لندن ، ومن ثمّ في كافة أنحاء بريطانيا . وراح الناسُ يتناقشون حول

الموضوع ، فيقول فريقٌ بإمكانِ تنفيذِ الرحلة ، ويقول آخرونَ بأن المغامرةَ خرقاء ، وأنها ستُمنى بالفشل . وما لبثَ الفريقُ الذي يعارض فيليس أن أصبح يؤلّف الأكثرية . فقد عارضته صُحُفُ « التيمس » و « الستاندرد » و « الايفننغ ستار » و « المورننغ كرونيكل » وعشرون صحيفة أخرى ، ولم يَبْقَ في جانبه غيرُ « الديلي تلغراف » ، التي أيدته إلى حدٍ ما . وقد نعتَتْه بعضُ الصحفِ بالأخرقِ والمجنون ، وألحتْ باللائمة على أعضاء نادي الإصلاح الذين دخلا في هذا الرهان .

في الأيام الأولى وقفَ في صفِ فيلْيَس بعضُ أصحاب العقول الجريئة — وعلى الأخصّ النساء — عندما نُشِرت صورته في جريدة « أنباء لندن المصورة » . ولكن في السابعِ من تشرين الأول ظهر مقالٌ مطوّل في « نشرة الجمعية الجغرافية الملكية » بحث المسألةَ من جميع نواحيها ، وبيّن مختلف العقبات ، سواء منها البشرية أو الطبيعية ، التي تقف كلّها ضد ذلك المغامر .

وأكد المقالُ أنه ، من أجلِ نجاح الرحلة ، لا بد من توافق دقيق بين مراعيد القطارات والسفنِ ووسائلِ النقل الأخرى ، وهو توافقٌ غير متحقق على الاطلاق ، هذا إلى جانبِ الحوادثِ ، ورداءة الأحوال الجويةَ ، وتراكمِ الثلوجِ ، إلى آخرِ ما هنالكَ من المعوّقات .

وقد أحدث هذا المقالُ ضجةً كبيرة ، فسقطَتْ أسهم فيليس فوغ سقوطاً مذهلاً . وكان الجمهورُ قد بدأ يراهن ، مع فوغ أو ضدهُ ، لأن المراهنةَ شيءٌ متأصّلٌ في الشعب الانكليزي . ليس هذا فحسب ، بل إن فيليس فوغ ، قد دخل البورصة ، ولكن لم يمض على سفر فوغ خمسة أيام وظهور مقال الجمعية الجغرافية ، حتى انهالت الأسهم المعروضة ولا من راغب فيها .

وبعد سبعة أيام حدثَ شيءٌ غير منتظَر : ذلك أن برقية موجهة إلى سكوتلنديارد (البوليس البريطاني) وصلت من السويس وفيها هذه الكلمات : « إنني أتعقب سارقَ البنك فيلْيَس فوغ — أرجو الاسراع بإرسال مذكّرة توقيف بحقّهِ إلى مدينة بومباي . رَجُل الأمن فيكس . »

هذه البرقيةُ قلبَتِ الأمورَ رأساً على عقِب : فمن مغامر جريء انقلب فيلْيَس فوغ إلى لصٍ يسطو على المصارف. والسرُ في ذلك أن الصورةَ التي نشرتْها الصحف والتي أخذت من ملف فوغ في نادي الإصلاح ، كانت مطابقة للأوصاف التي أذيعت عن سارقِ المصرف . وعزّزَ هذا الاعتقادَ ذلكَ الغموضُ ، الذي كان يحيط بحياة فيلْيَس فوغ ، ثم سفرُهُ السريعُ بحجة رهانٍ غريب على رحلةٍ غيرِ معقولة . وقد قرّ في الأذهان أن فيلْيَس

فرغ ابتدع هذه الرحلةَ حول العالم لتضليل البوليس ، والهربِ بالغنيمة إلى الخارج .

٦ . الشرطي فيكس

كان رجلان يتمشيان في مرفأ السويس في صبيحة الأربعاء التاسع من تشرين الأول . وكانا في انتظار الباخرة « منغوليا» التابعة لشركة « شبه الجزيرة الهندية والشرق » البحرية ، التي كان من المنتظر أن تصل في الساعة الحادية عشرة . وكانت هذه الباخرةُ — وهي أسرعُ البواخر التي تملكها الشركةُ — تؤمّنُ المواصلاتِ بين مرفأي برنديزي (ايطاليا) وبومباي عن طريق قناة السويس .

أما أحدُ الرجلَيْن فكان هو الممثل القنصليَّ البريطاني في مدينة السويس ، وأما الآخر فكان أحدَ رجال الأمن الانكليز الذين أرسلوا إلى مختلف الموانيء ، على أثر السرقة التي وقعت في « مَصْرِف انكلترا» . وكان هذا الرجل — ويدعى فيكس — نحيفَ الجسم عصبيَّ المزاج ، حادَّ النظرات ، تبدو على وجهه أمارات الذكاء . وكان في تلك اللحظة باديَ الاضطراب والضيق ، لا يستقرّ في مكان . كان عليه أن يراقبَ جميع المسافرين ، حتى إذا عثر على الشخص الذي تنطبقُ عليه أوصافُ السارق ،

عمد إلى تتبّعِ خطراتهِ إلى أن تأتيَه مذكرةٌ بالقبض عليه ، وإعادتِهِ إلى انكلترا .

قال القنصل :

« الحق أنني لا أستطيع ، يا سيد فيكس ، أن أتخيل كيف تمكنُكَ الأوصاف ، التي تلقيتها ، من معرفة ذلك الرجلِ إن كان على ظهر « المنغوليا » .

— « إن مثل هؤلاء الناسِ ، يا سيدي القنصل، تُدْرِكهم بحاسةِ شمٍّ خاصة ، يتعاون فيها السمع والبصر والشم ! »

— أرجو لك النجاح! ولكنني أخشى ، مع ذلك ، أن تكون مُهِمّتُكَ بالغةَ الصعوبة ، لأن الأوصاف التي تذكرها تنطبق تماماً على رجل شريف .»

— « إن كبار اللصوص يُشبهون الرجالَ الأشراف بصفة مستمرة . وأعتقد بأنك توافقني على أن ذوي الأشكال ، التي تحمل على الشك ، من مصلحتهم أن يظلّوا أشرافاً ، وإلا أوقعوا أنفسَهم بسهولة . أما ذَوُو السماتِ النبيلةِ ففي استطاعتهم أن يقترفوا الجرائمَ ويختفوا وراء هذه السماتِ الطاهرة ، ومن هنا كان استخراج الأنذالِ من صفوفِ الأشرافِ فناً بكل معنى الكلمة !»

وبدأت تتوافد على المرفأ جماعاتٌ من الناسِ من كل

صنف .. كان هناك بحارةٌ من مختلف الجنسيات ، وتجار وسماسرةٌ وحمالونَ وفلاحونَ ... وكان فيكس يتصفح جميعَ تلك الوجوهِ بنظراتٍ ثاقبةٍ خاطفة .

قال ، بعد أن عرَفَ من القنصلِ أن السفينةَ ستبقى أربعَ ساعات في السويس ريثما تتزوّد بالفحم ، ثم تواصل السفر إلى عدن في طريقها إلى بومباي :

« أعتقد أن خطة السارق ــ إذا كان على ظهر المنغوليا ــ أن ينزل في السويس ، ويسافرَ منها إلى إحدى المدن في الممتلكات الهولندية أو الفرنسية بآسيا ، لأنه يعلمُ أنه لن يكونَ في مأمن إن قصدَ إلى الهند ، وهي تابعةٌ لبريطانيا » .

ــ « اللهمَّ إلا إذا كان رجلاً فَطِناً حسَنَ التصرُّف ! فلا يخفى عليك أن اللصّ الانكليزيّ يستطيع أن يضمنَ سلامتَه في لندن أكثر من أي مكانٍ آخرَ في الخارج ! »

بعد هذه الملاحظة الوجيهة التي جعلَتْ فيكس يُعيد التفكيرَ في توقُّعاته واستنتاجاته ، توجّه القنصلُ إلى مقرّه ، الذي لم يكن يَبْعُدُ كثيراً عن المرفأ ، وخلّفَ مفتشَ الأمنِ مع أفكاره وهواجسه .

ولم يمضِ على ذلك طويلُ وقتٍ حتى ارتفعت أصواتُ الصفاراتِ معلنةً وصولَ الباخرة منغوليا ، وما لبثت هذه

أن ظهرت بهيكلها الضخم .

كانت الباخرةُ تحملُ عدَداً كبيراً من المسافرين ، ولكنهم لم يهبطوا جميعاً إلى البرّ ، بل بقي بعضُهم على ظَهْرِ السفينة يشاهدون المدينةَ من بعيد . وراح فيكس ينظرُ إلى الوجوهِ كلّما أقبلَتْ مجموعةٌ بأحد المراكب الشراعية . ومن بين تلك الجماعات تقدّمَ منه شخصٌ وسأله بأدبٍ عما إذا كان في استطاعتهِ أن يدُلّه على دار القنصلية البريطانية . وكان الشخصُ يحمل بيدهِ جوازَ سفرٍ انكليزياً . فتناولهُ فيكس دون شعور ، وفي الحال تجلّى له أن الأوصافَ التي في الجواز هي نفس الاوصاف التي تلقاها من الشرطة المركزية ، وكادت تَصْدُرُ عنه حركةٌ لا إرادية . قال للشخص :

« هذا الجوازُ ليس جوازكَ ، أليس كذلك ؟ »

ــ « إنه جواز سيّدي ! »

ــ « وأين سيّدُك ؟ »

ــ « لقد بقيَ في السفينة ! »

ــ « لا بد من حضوره شخصياً إلى القنصلية ! »

ــ « وأين توجد القنصلية ؟ »

ــ « هناك في زاوية الساحة ! »

قال المفتشُ هذا وهو يشيرُ بيده إلى بناءٍ يقعُ على

نحوِ مِتتيْ خطوة . فتركه الرّجلُ ليعودَ إلى الباخرة ويدعو سيده .

٧ . في القنصلية

ما لبث مفتش البوليس أن خفّ إلى القنصلية بعد أن مضى عنه الخادم . وهناك ابتدرَ القنصلَ بقوله :

« أعتقد أن السارق ، يا سيدي ، على ظهر الباخرة ! »

ثم روى ما حدث له مع الخادم . فقال القنصل :

« ولكنّ هذا الشخص قد لا يأتي ، لأنك تعلمُ أن التأشيرةَ ليست ضروريةً ، فاللصوصُ لا يحبّون أن يتركوا آثاراً وراءهم . »

— « سيدي القنصل ! إن كان هذا الرجلُ حاذقاً ، كما يلوح ، فلسوف يأتي ، لأن التأشيراتِ تتيحُ الهرب للجُناة ولا تضايقُ سوى الأشراف ... ولكن أرجو أن تمتنعَ عن التأشير على جواز هذا الرجل ! »

— « إن كان جوازُهُ قانونياً فلا يسعُني أن أرفض التأشير عليه » .

— « ولكنْ عليّ ، يا سيدي القنصل ، أن استبقيَ هذا الرجلَ هنا إلى أن تصل مذكّرة التوقيف ! »

— « هذا أمر يخصُّك أنت ، يا سيد فيكس ! ..

أما أنا ... »

ولم يكمل القنصلُ جملتَهُ ، فقد قُرِعَ بابُ المكتب . ثم دخلَ الحاجبُ ووراءهُ شخصانِ غريبان ، أحدُهما هو الخادم الذي تحدّث عنه فيكس ، والثاني هو سيّده . وقدّم السيد جوازَهُ ، فأخذه القنصلُ وجعلَ يتأمّلُهُ ، بينما وقف فيكس في الركن يلتهمُ الرجلَ الغريبَ بعينيه . قال القنصل :

« هل أنت السيد فيليس فوغ ! »

— « نعم ، يا سيدي ! »

— « وهذا ؟ .. هل هو خادمُك ؟ »

— « نعم ! .. وهو فرنسيّ ، ويدعى باسبارتو ! »

— « أأنت آتٍ من لندن ؟ »

— « نعم ! »

— « وإلى أين تقصد ؟ »

— « إلى بومباي ! »

— « حسناً ! ولكنّ التأشيرَ ليس ضرورياً ، لأننا لا نطلبُ ابرازَ الجواز ! »

— « أنا أعلمُ ذلك ، يا سيدي ، ولكنني أريد أن أسجّل مروري بالسويس ! »

— « لكَ ما تريد ، يا سيدي ! »

وبعد أن ختمَ القنصلُ جوازَ فيلِيْس خرج هذا ، فأقبلَ المفتشُ يسألُ القنصلَ عن رأيه ، فأجابه قائلاً :

« إنّه يبدو لي رجلاً شريفاً ، لا يُشكُّ فيه ! »

— « ومع ذلك ألا تجدُ ، يا سيدي القنصلَ ، أن هذا الرجلَ الباردَ تنطبقُ عليه جميعُ الأوصاف ؟ .. يلوحُ لي أنني أستطيع أن أصلَ إلى بعض المعلومات عن طريق الخادمِ ، فهو فرنسي لا يقدرُ أن يصونَ لسانه .. إلى اللقاء ! »

أما فيلِيْس فوغ فقد توجّهَ إلى الرصيف ، وبعد أن أصدرَ إلى خادمه بعضَ الأوامر ، ركبَ قارباً وتوجّهَ إلى « المنغوليا » حيث مضى إلى حُجرته ، فأخرج مفكرةً كانت تشتمل على هذه التسجيلات :

« غادرتُ لندن يومَ الأربعاء الثاني من تشرين الأول الساعة ٨ و٤٥ دقيقة .

« وصلتُ باريس الخميس في ٣ تشرين الأول الساعة ٧ و٢٠ دقيقة من الصباح .

وصلت تورينو (ايطاليا) عن طريق مون سينيس صباح الجمعة ٤ منه الساعة ٦ و ٣٥ د .

« تركت تورينو صباح الجمعة الساعة ٧ و ٢٠ د .

« وصلت إلى برنديزي الساعة ٤ من بعد ظهر السبت

٥ تشرين الأول .

« أبحرت على ظهر المنغوليا في الخامسة من مساء السبت.

« وصلت إلى السويس الساعة ١١ من صباح الأربعاء ٩ تشرين الأول .

« مجموع الساعات ١٥٨ ونصف الساعة ، أي ما يعادل ٦ أيام ونصفَ يوم . »

٨. ثرثرة باسبارتو

خرج فيكس من القنصلية ولحق بباسبارتو ، الذي كان يتسكّع في المرفأ .. ولما قابلهُ ابتدرَهُ بقوله :

« هل ختمتَ جوازك ؟ »

— « أهذا أنت ، يا سيدي ؟ ! ... طبعاً إننا نسيرُ حَسَبَ الأصول ! »

— « أرى أنك تتعرّف على المدينة ! »

— « أجل ! ولكنني لا أجد الوقت الكافي ، فنحن نسيرُ بسرعة مُذْهلة حتى لَيُخيَّل إليّ أنني أسافر في الحُلْم ! .. تصوّرْ أننا لم نمكُثْ في باريس إلا من السابعة حتّى الثامنة وأربعين دقيقة من الصباح ! »

— « يبدو أنكما عَجِلان ؟ ! »

ـ « أنا لست في عجلة من أمري ، بل سيدي ! .. في المناسبة .. أريدُ أن أشتري جواربَ وقمصاناً .. لقد سافرْنا بدون حقائب ، ولم نحمِلْ معَنا سوى كيسٍ للغيارات الضرورية ! »

ـ تعالَ لآخذكَ إلى سوقٍ تجدُ فيها كلَّ ما تطلب ! »

ـ « إنك في غاية اللطف ، يا سيدي ! »

ـ « ولكن عليَّ ألا أتأخر عن موعد الباخرة ! »

ـ « ما زال أمامك وقتٌ طويل ، فالساعةُ لم تتعدَّ بعدُ الثانيةَ عشرة ! »

قال باسبارتو وهو يُخرج ساعتَهُ الأثَريّةَ الغليظة :

« الثانية عشرة ؟ ! دعك من هذا : الساعة الآن هي التاسعة واثنتان وخمسون دقيقة ! »

ـ « ساعتك متأخرة ! »

ـ « إن ساعتي لا تخطيء .. إنها ساعة الأسرة .. جاءتني من جدِّ جدي ! »

ـ « فهمت ! .. لقد تركتَها مضبوطةً على ساعة لندن ، والساعةُ في لندن أقلُ عنها في السّويس بنحو ساعتين .. عليك أن تضبط ساعتك ظهراً في كل بلد ! »

ـ « لا يمكن أن أمسَّ ساعتي ! »

ـ « على هذا لن تكون متفقةً مع حركة الشمس ! »

ـ « الشمس هي التي ستكون المخطئة ! »

وأعاد الخادمُ الطيِّبُ ساعتَهُ إلى جيبِهِ بخُيَلاء ... وقال له المفتشُ وهما يسيران :

« تقول إنكما غادرتما لندن على عجل ؟ ! »

ـ « أجل ! ففي الساعةِ الثامنةِ من مساء الأربعاء الماضي ، عاد سيدي من ناديه على غيرِ عادتِهِ ، وبعد ثلاثةِ أرباع الساعة غادَرْنا العاصمة ! »

ـ « وإلى أين يَقْصدُ سيّدُك ؟ »

ـ « إنه يسيرُ قُدُماً ليدورَ حولَ العالم ! »

ـ « حولَ العالم ؟ ! »

ـ « نعم .. وفي ثمانين يوماً .. لقد راهنَ على ذلك ! .. ولكن أتريدُ رأيي ؟ .. أنا غيرُ مؤمنٍ بهذا الرهان .. لا بد أن يكون هناك شيء آخر ! »

ـ « يبدو أن السيد فوغ رجل غريب الأطوار ! »

ـ « أعتقد ذلك ! »

ـ « أهو غني ؟ »

ـ « بالطبع ! .. إنه يحملُ معَهُ مبلغاً محترماً من الأوراقِ الماليةِ الجديدة ! .. وهو لا يقتصدُ في الصرف ، مثالَ ذلك أنه وعدَ الميكانيكيَّ في الباخرة منغوليا بمكافأةٍ سخيّةٍ إن أوصلنا إلى بومباي قبلَ الموعدِ المحدّد بمدة

كافية ! »

— « وهل تعرِفُهُ منذ زمن طويل ؟ »

— « أنا ؟ ! .. لقد دخلتُ في خدمتِهِ يومَ السفرِ بالذات ! »

وفي وُسْعِكَ أن تتصورَ وَقْعَ هذه الأجوبةِ على المفتشِ الممتلىء بالشكِّ أصلاً . وقد استطاعَ أن يعرف من الخادمِ الفرنسيِّ أن فيلْيَس فوغ يعيشُ في عُزْلةٍ عن لندن ، وأنه رجلٌ غنيٌّ ، ولكن لا يعلَمُ أحدٌ مَصْدَرَ ثروتِه . فهو رجلٌ غامضٌ كلَّ الغموض .. كل ذلك حوَّلَ شكَّ المفتش إلى يقين . فما إنْ أوصلَ الخادمَ إلى السوقِ حتى تركَهُ يتصرفُ بمفردِه . وعاد أدراجَهُ إلى القنصلية ، حيث روى للقنصلِ ما دار بينَهُ وبين الخادم . ومن هناك طيَّر البرقيةَ التي أتينا على ذكرها .

وبعد ربعِ ساعةٍ ، كان في طريقه إلى الباخرة منغوليا ليتعقب فيلْيَس فوغَ إلى بومباي حيث يمكنُ له أن يقبض عليه بعد أن تكون مذكرةُ التوقيف قد سبقَتْهُ إلى تلك المدينةِ الهنديةِ الواقعةِ تحت النفوذِ البريطاني .

٩ . الرياح مؤاتية

تبلغُ المسافةُ بين السويس وعدَن ألفاً وثلاثمئةَ ميل . وقد حدَّدَتْ الشركةُ لسفنِها مئةً وثماني وثلاثين ساعةً لقطعِها . ولكنَّ المنغوليا كانت تجري بسرعة .

وكان أغلبُ المسافرينَ متوجهينَ إلى الهند .. قسمٌ منهم تنتهي رحلته في بومباي والقسمُ الآخرُ سيأخذُ القطارَ إلى كلكوتا . وكان بينهم عددٌ كبيرٌ من الموظفينَ والضباطِ الانكليز . وقد تمكنَ فوغ أن يَعْثُرَ بينهم على نفرٍ من المولَعين بلعبة الهَوِيْسْت ، وهم موظّفُ ضرائبَ ووزيرٌ ، والأب المحترم ديسيموس سميث وضابطٌ في الجيش البريطاني . فكان يقضي مَعَهم عدةَ ساعات في اللّعِب ، وهو محتفِظٌ بهدوئِهِ ورزانتِهِ وبرودةِ أعصابه .

أما باسبارتو ، الذي كان يحتلُّ حجرةً في مقدَّمِ السفينة ، فقد بدأ يستمتعُ بالرحلة ، لأنه يتناولُ أجودَ الطعامِ ، ويرى أماكنَ جديدةً ما كان يحلُمُ برؤيتها . ولَكَمْ سُرَّ عندما رأى في اليومِ التالي لمغادرة السويس ذلك الرجل « اللّطيف » الذي رافقَهُ إلى السوق .. قال وهو يُقبل عليه :

«كم أنا مسرورٌ برؤيتك ، يا سيدي ! »

— «أهذا أنت ، خادم ذلك الانكليزيّ الظريف ؟ ! »

— «أجل ، يا سيد ...»

— «فيكس !»

— «وإلى أين أنت مسافر ، يا سيد فيكس ؟»

— «إلى بومباي .. مثلكما !»

— «هل سافرتَ إلى الهند قبل الآن ؟»

— «مراراً .. فأنا أعمل في إحدى الشركات البحرية !»

ومنذ تلك اللحظة أصبحَ باسبارتو وفيكس متلازمَيْن . وكان المفتشُ يحرصُ على تمتين علاقته به ، ليطّلعَ ، عن طريقه ، على كلّ شيء ، فكان يأخذُه إلى مقصَف السفينة حيث يقدّم إليه بضعَ كؤوس من الشّراب .

وكانت السفينةُ ماضيةً بسرعة . وقد أشرفَتْ في الثالثَ عشرَ على مدينة «مُخا» اليمنية التي تحيط بها مرتفعاتٌ تكسوها حقولُ البنّ .

وفي الليلة التالية اجتازتْ مضيق «باب المندَب» ، ورَسَتْ في الصباح شمالَ غربي «عدن» للتزوّد بالوقود . وكان من المقرّر أن تمكثَ الباخرةُ في المرفأ أربعَ ساعات ، ولهذا هبطَ فوغ إلى الميناء ، ومعهُ خادمُه ، كيما يختمَ جوازَهُ .

وكان فيكس يتتبّعُهما من بعيد . فلما أنهى فوغ عمَلَهُ عاد إلى السفينة ، بينما ظلّ باسبارتو يتسكّعُ في المدينة ليرى هذا العالمَ الجديدَ عليه .

في الساعةِ السادسةِ من المساء أقلعتِ الباخرةُ من عدَن في اتجاه بومباي . وكان المحيطُ الهنديّ هادئاً ، والرياحُ تهبّ من الشمال الغربي ، فرفعتِ السفينةُ الأشرعةَ لتساعدَ البخار . وخرجت النساءُ بزينتهنّ إلى ظهر الباخرة وعاد الرقصُ والغناءُ والمرَح .

وفي يوم الأحد ، العشرينَ من تشرينَ الأول ، ظهرَ الساحلُ الهنديّ حوالى الظهر . وفي الساعة الرابعة والنصف كانتِ الباخرةُ تُلْقي مراسيَها في مرفأ بومباي . ولما كان تاريخُ الوصول محدّداً ليوم ٢٢ تشرين الأول ، فقد ربح فيليس فوغ يومَيْن سجّلَهُما في مفكرته .

١٠ . باسبارتو يفقد حذاءه

هذه هي الهندُ ، ذلك المثلثُ المقلوبُ الشاسع ، الذي تبلغ مساحتُهُ ألفاً وأربعمئةَ ميلٍ مربع ، والذي تسيطرُ الحكومةُ البريطانيةُ سيطرةً تامةً على سبعمئة ميلٍ مربعٍ منه ، كما تسيطرُ على الحكم في كلكوتا ومَدْراس وبومباي والبنغال وغيرها . ولكنّ جزءاً هاماً من الهند

ظل خارج ممتلكات صاحبة الجلالة البريطانية . فهناك
مهراجات متمسكون تمام التمسك باستقلالهم .

وكانت شركة الهند البريطانية – منذ أن استقرت ،
عام ١٧٥٦ في الرقعة التي تمتد عليها الآن مدينة
مدراس ، حتى ثورة الجنود الهنود – تمارس نفوذها
على الحكام وتضم إليها المقاطعات ، الواحدة تلو
الأخرى ، تشتريها من المهراجات بريع ممتلكاتها ، فتدفع
مرة وتمتنع عن الدفع مرات . وكانت هي التي تولي
الحاكم العام والموظفين المدنيين والعسكريين . ولكن
هذه الحال قد تغيرت الآن ، وأصبحت الممتلكات
البريطانية في الهند تابعة للتاج بصورة مباشرة .

ولقد تغيرت أشياء كثيرة في الهند ، فبينما كانت
المواصلات تتم في الماضي حسب الطرق البدائية ،
أصبحت المراكب البخارية الآن تشق نهر الهندوس
والكنج ، وامتدت سكة حديد على عرض شبه الجزيرة ،
متشعبة هنا وهنالك ، وواصلة بومباي (على الساحل
الغربي) بكلكوتا (البنغال الشرقية) .

إن هذا الخط الحديدي غير مستقيم ، لهذا فإن المسافة
بين المدينتين – ومقدارها بخط مستقيم ما بين ألف
وألف ومئة ميل – تزداد بنسبة الثلث على الأقل ،
لأن الخط يصعد حتى مدينة « الله أباد » في الشمال .

في الساعة الرابعة والنصف من المساء غادر « المنغوليا »
ركابها ، ونزلوا في بومباي ، وكان قطار كلكوتا سيقوم
في الثامنة . فأرسل فيليس فوغ خادمه لشراء بعض
الأشياء ، وتوجه هو إلى دائرة الجوازات . وبعد أن
انتهى من الإجراءات الرسمية ذهب إلى المحطة ، حيث
طلب عشاء وجلس ليأكل .

وكان فيكس قد هبط في دوره من السفينة وخف
إلى دائرة الشرطة . وبعد أن قدم نفسه إلى المسؤولين
وأعلن عن مهمته ، سأل عما إذا كانت مذكرة
توقيف بحق فيليس فوغ قد أرسلت من لندن ،
فأجيب بالنفي . ذلك أن هذه المذكرة لا يمكن أن
تكون قد وصلت ، لأنها خرجت بعده من لندن .
فأسقط في يد فيكس وحار في أمره ، وعندها طلب
من مدير الشرطة أن يصدر له مذكرة بالقبض على
ذلك السارق ، الذي تعقبه من لندن ، فرفض المدير
رفضاً قاطعاً ، لأن المسألة تخص الشرطة المركزية
في انكلترا . ولم يلح فيكس أكثر من ذلك ، ولكنه
قرر ألا يفقد أثر فيليس فوغ .

أما باسبارتو ، فبعد أن اشترى ما أوصى سيده
بشرائه ، راح يطوف في أنحاء المدينة . وكانت إحدى
الطوائف هناك تحتفل بعيد من أعيادها المقدسة . وكان

هذا العيدُ أشبهَ بالكرنفال ، فمضى الخادمُ الفرنسي يشهَدُ الرقص والاستعراضات .

ولكنه لم يكتفِ بذلك ، بل خطرَ له ، وهو متوجهٌ إلى المحطة ، أنْ يزورَ معْبَدَ « مالاباراهيل » الرائع ، الذي مرّ عليه في طريقه . وكان يجهَلُ بالطبع أن بعضَ المعابدِ الهندوكيةِ لا يجوز أن يدخلها المسيحيون ، وأن الهندوسَ أنفسَهم لا يدخلون إليها إلا بعد أن يخلعوا نعالَهم عند الباب . وكانت الحكومةُ البريطانيةُ تحرص أشدَّ الحرصِ — لأسبابٍ سياسيةٍ مفهومة — على احترام التقاليدِ الدينيةِ للوطنيين ، وإنزالِ العقوباتِ الصارمةِ بكلِ من يمسُّها من الأجانب .

ودخلَ باسبارتو ، كسائحٍ عادي ، ينظرُ إلى النقوش والتحف في الداخل . وكان هناك ثلاثةٌ من الكهنة . فلم يَروْهُ داخلاً بحذائهِ حتى هجموا عليه ، فألقَوْهُ أرضاً ، وجردوهُ من نعليه وجوْربيه ، وانهالوا عليه بالضرب ، وهُمْ يُطلقون صيحاتٍ مُرْعبةً . ولكنهُ نظراً لقوّته وخفته ، تمكّن من قلبِ اثنين منهم ، ومن ثمّ أطلقَ ساقيْه للريح .

ووصلَ إلى المحطةِ قبلَ قيام القطار بخمسِ دقائق . ولكنه فقَدَ في هذه المغامرة ، قُبعتَه وحذاءه وصُرةَ الملابسِ التي اشتراها .

وكان فيكس مختبئاً عندما سردَ باسبارتو قصتَهُ على مسامع سيّده ، فسمعَ كلَّ ما قالَهُ الخادم . وهنا بدا له أنه يستطيعُ أن يؤخّرَ فوغ ريثما تصلُ مذكرةُ التوقيف ، فقررَ البقاء لاتخاذ الإجراءات اللازمة كيما تقبضَ السلطاتُ على باسبارتو الذي ارتكبَ جُنحةً على أرضٍ هندية .

١١ . الفيل الثمين

انطلق القطارُ في الوقتِ المحدّد يحملُ عدداً من الضباط والموظفينَ المدنيينَ وتجارَ الأفيونِ والنيْلة . وكان في المرْكَبة ، التي يجلسُ فيها فوغ وخادمُهُ ، شخصٌ هو العميدُ السير فرنسيس كرومارتي ، أحد رفاق فيلْيَس في لعبة الهويست ، خلالَ الرحلة من السويس إلى بومباي . والعميد كرومارتي يشبه الهنود إلى حد بعيد . فلقد عاش في الهند منذ الحداثة ، وهو يبلغُ الآن الخمسينَ من العُمر . وكان على جانبٍ كبيرٍ من الثقافة ، كما كان خبيراً في الشؤون الهندية . ولكن فوغ لم يكنْ يسألُهُ عن شيءٍ ، فالواقع أن هذا الإنسانَ الجامدَ لا يسافرُ بل يرسمُ دائرةً حول الأرض .

وكانتِ الأحاديثُ بين الاثنين مُقْتضبةً متقطّعةً ، لا يبدأ الواحدُ منها حتى ينتهي . قال العميد :

« إن الحاكمَ البريطانيَ هنا شديدٌ جداً ، وخاصةً فيما يتعلق بالمخالفات الشبيهة بمخالفة خادمِكَ هذا .. فلو أنهم قبضوا عليه لكانتْ رحلتُكَ قد تعطّلَت ! »

وكان باسبارتو نائماً في الزاوية ، فأجاب فوغ :

« إنني لا أرى صلةً بين رحلتي وبين ما فعلَ خادمي ، فلو قُبِضَ عليه لحوكِمَ وسُجِن ، وعندما يقضي مدة العقوبة يعودُ إلى أوربا ، فهل يؤثّر هذا في رحلة سيّده ؟ »

في صباح ٢١ تشرين الأول انطلقَ القطارُ في منطقة مُنبسطة بعد أن قطع المنطقةَ الجبلية أثناء الليل . وفي الثانيةَ عشرةَ والنصف ظهراً ، توقف في محطة « بورهامبور » حيث اشترى باسبارتو ، بثمنٍ مرتفعٍ ، « بابوجاً » مزيّناً باللآليء الزائفة .

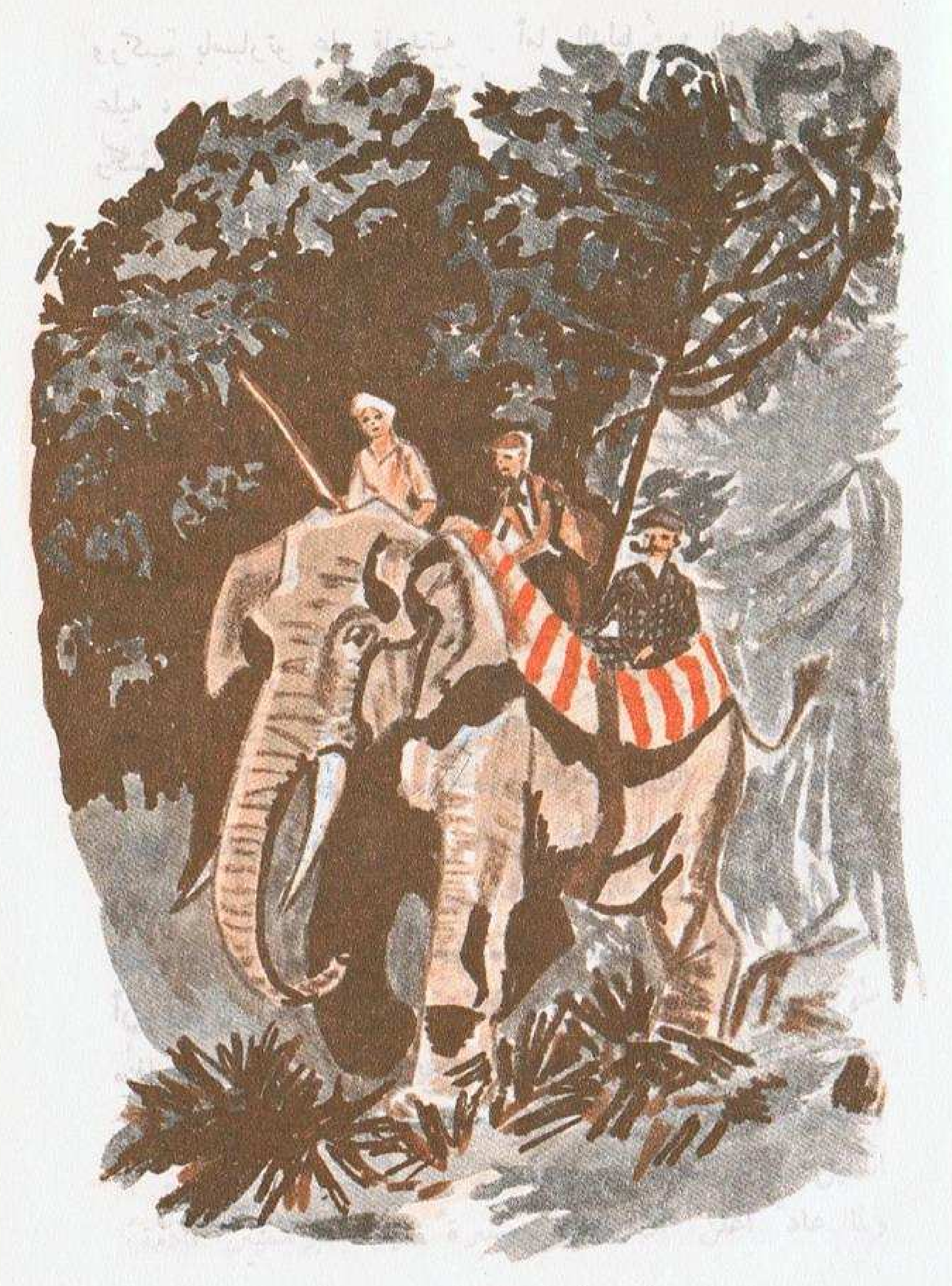
وبعد أن تناولَ المسافرونَ غداءَهُمْ بسرعة ، عاد القطارُ إلى المسير . والحقيقة أنّهُ حدَثَ انقلابٌ في ذهنِ باسبارتو . فقد أصبحَ مؤمناً بحقيقةِ الرهانِ الذي عقدَهُ سيّدُهُ ، حريصاً على الوقت ، خائفاً من أي تأخيرٍ يمكنُ أن يعطل السيد فيلْيَس فوغ عن إتمام رحلته حول العالمِ خلالَ المدةِ المحدّدة .

في الثاني والعشرينَ سألَ السير فرنسيس كرومارتي

باسبارتو ، مصادفةً ، عن الساعة ، فأجابه بأنها الثالثةُ صباحاً . ولكن ساعة الفرنسيَّ الطيّب كانَت لا تزال مضبوطة حسب خط غرينتش ، الذي كان يبعُدُ عنهم نحوَ ٧٧ درجة نحو الغرب ، مما يجعلُ تلكَ الساعةَ متأخرةً عن الوقت ، في النقطة التي هم فيها ، أربعَ ساعات . عندها أبدى له العميدُ نفسَ الملاحظة التي أبداها فيكس ، بأن يضبطَ ساعتَهُ طِبْقاً لكلِ خط جديد . وأفهمَهُ أنه ما دامَ ماضياً باستمرارِ نحو الشرق ، أي مع الشمس ، فإن كل يوم يَقْصُرُ بمقدارِ أربع دقائق ، كلما قطع هو درجةً في مسيرِهِ . ولكن باسبارتو أصرَّ على ألا يمسَّ ساعته .

في الثامنة من الصباح توقّف القطارُ في وسط إحدى الغابات وعلى مسافة ١٥ ميلاً من محطة « روثال » ، ودارَ السائقُ على المسافرين يطلبُ إليهم النزولَ . والسببُ في ذلك أن الخط الحديدي ينقطعُ هنا ، ليعودَ في « الله أباد » . والمسافرونَ المتعوّدونَ على القيام بهذهِ الرحلة باستمرار يَعرِفونَ أن عليهم أن يقطعوا المسافةَ بين «خولبي» والله أباد بوسائلهم الخاصة ، ليعودوا إلى ركوبِ قطار آخر في الله أباد ، بنفسِ التذكرة ، يوصلهم إلى كلكوتا . وهذه المسافةُ تبلغ خمسين ميلاً .

وفي حين ثارَ السير فرنسيس لأنه قرأ في الصُحُف



على ظهر الفيل ٢

أن الخطَّ تمَّ إنشاؤهُ في تلك المنطقة ، ظل فيليس فوغ هادئاً ، مع أن هذا التأخير يهدّدُ رحلتَهُ بالاخفاق . ولكنه كان يتوقعُ كلَّ شيء ، ثم إنه كسبَ يومين أثناء السفر بالبحر . وعلى هذا فما زال أمامه ثلاثةُ أيام ليصلَ إلى كلكوتا ، حيث يأخذُ الباخرةَ التي تبحر منها يوم ٢٥ تشرين ، متوجهةً إلى هونغ كونغ .

وذهبَ الثلاثةُ للتفتيش عن وسيلةٍ من وسائلِ النقل ، ولكن الركابَ الآخرينَ كانوا قد سبقوهم ، فاستنفذوا جميعَ الوسائلِ المتوفرةِ في تلك القريةِ الصغيرة ، وهي قليلةٌ بالطبع . وكان باسبارتو قد علِمَ ، في أثناء تفتيشِهِ ، أن هناك رجلاً هندياً لديْهِ فيل . فذهبوا إلى الرجل . ولكن هذا رفضَ نقلَهم ، لأنه كان يُربي فيلَهُ من أجل الحرب ، لا للنقل . وظلَّ الهنديّ على رفضه رغم إغراء فيليس له بالمال الكثير . عندها طلبَ إليه أن يبيعَهُ الحيوانَ ، وعرض عليه مبلغ ألف جُنيه ، أي ما يعادلُ أضعافَ السعرِ الحقيقي للفيل . وقد التمعت عينا الهندي الطمّاع ، ورأى أن في إمكانهِ أن يستغل الموقفَ استغلالاً كبيراً ، فرفض الألف وأعلنَ أنه متعلّقٌ بفيله ، ولا يريدُ بيعَهُ . ولكن فوغ عرض ألفين دفعةً واحدةً ، فوافق الهنديّ في الحال . ومن ثم جُهزَ الفيلُ بهودَج ، جلسَ فوغ والعميد كلٌّ في جانبٍ منه ،

وركبَ باسبارتو على قاعدتهِ . أما الدليلُ ، الذي عثروا
عليه ، وهو شابٌ مجوسي تُشعُّ عيناه بالذكاء ، فقد
ركبَ على عُنق الفيلِ . الذي تحرّكَ في الساعةِ التاسعة ،
ومضى يشقُّ الغابة .

١٢. آلهة الحبِّ والموت

اتخذَ الدليلُ ، الذي كان خبيراً بالطُرق والدّروب ،
طريقاً مختصراً في قلب الغابة . مُطْلقاً لفيله العِنان .
فجرى الفيلُ يهز راكبيه هزاً عنيفاً . أما باسبارتو فكان
تارةً يُلقى على عنق الفيل . ويرتدُّ تارةً أخرى إلى
الوراء ، وهو ما بين ذلك يَضْحكُ ويمرح ، ويقدّمُ
قِطعَ السكّر للفيل الذكيّ « كيومي » . الذي كان
يتناولُها برأس خُرطومِهِ . دون أن يتوقفَ عن المسير .
وعند الظهر توقّف الدليل ليريحَ الفيل ساعةً من الزمن .
وكان أشدَّ الجميع فرحاً بهذه الاستراحةِ السير فرنسيس ،
الذي كان يشعر بأن أعضاءَهُ محطّمة . وقد أدهشَهُ
أن يكون فوغ على أتمِّ النشاط . كأنه غادر سريرَهُ
منذ لحظةٍ بعد نومٍ مريحٍ ، فصاح :

« أأنت من حديد ؟ ! »

فأجاب باسبارتو :

« حديد مَسْقيّ ! »

وبعد أن تناولوا غداءً خفيفاً حَضّرَهُ باسبارتو عاودوا
المسير ، فدخلوا منطقةً موحشة . وبعد الغابات الكثيفة
الواسعةِ استقبَلَتْهُمْ أدغالٌ من التمر الهندي ؛ وبعضِ
النخلِ الصغير ، ثم مناطقُ جبليةٌ جرداء ، تنتشر فيها
هنا وهنالك شجيراتٌ قليلة . وكانتْ تلك المنطقةُ آهلةً
بأشد الهندوس تعصُّباً ، وأكثرهم شراسةً .

في الثامنة مساءً كانوا قد اجتازوا أهمَّ جزءٍ من
سلسلة جبال فندياس . فنزلوا إلى جانب منزلٍ متهدّمٍ
مهجور . خلال هذا النهار قطعوا نحو خمسةٍ وعشرين
ميلاً وبقي أمامَهُمْ مثلُها على وجهِ التقريب .

في اليومِ التالي عاودوا المسيرَ وانحدروا من الجبل ،
وعاد « كيومي » إلى سيرِهِ السريع . وفي الساعةِ الثامنة
انخرط الدليل في غابةٍ كثيفة تفادياً للمزعجات . والواقعُ
أنهم حتى تلكَ اللحظة لم يَصْطَدموا بشيءٍ ، ولم يصادفوا
سوى بعضِ القِرَدَة التي كانت تهرُبُ منهم . ولكن
حوالى الساعةِ الرابعة توقّف كيومي عن السير وعراه
بَعْضُ القلق . وكان يُسمَعُ صوتٌ خافتٌ بعيد . فنزلَ
الدليلُ ، وربطَ الفيلَ بشجرة ، وذهبَ يستطلعُ الخبر .
ولما عادَ أعلنَ أن هناكَ مسيرةً دينية للبرهميين قادمةً

من تلك الناحية ، والأفضلُ ألا يراهم البرهميّون . فانتقل الجميعُ إلى ركنٍ بعيدٍ عن الطريق تستُرُهُ عن الأعينِ الأشجارُ الملتفّة .

وبدأت الأصواتُ تقترب . وكانتْ مزيجاً من أصوات الطبولِ والصنّوج والأناشيدِ الجنائزية . ولم تمضِ دقائق حتى ظهرت المسيرةُ التي كان يتقدّمها الكهنةُ البرهميون، وحولَهُمْ طائفةٌ من النساء والأطفال تُنْشِدُ النشيدَ الجنائزيّ الرتيب الذي كانتْ تقطعهُ بين حينٍ وآخرَ قرَعاتٌ من الطبول والصنّوج .

وكانت تسيرُ وراءهم عرَبَةٌ وُضِعَ عليها تمثالُ الإلهة « كالي » . وهو تمثالٌ بشعٌ رهيبٌ في عنقهِ قلادةٌ من الجماجم وحولَ وسطه منْطقةٌ من الأيدي المقطوعة . كانت تلك « إلهة الحب والموت » ، فقال باسبارتو :

« أما أن تكون إلهة الموت ، فهذا أمرٌ مفهوم .. ولكن ما شأنُ الحبِ هنا ؟ ! »

فوضع الدليل سبّابته على فمهِ مشيراً إلى الخادمِ الفرنسي بالصمت .

وكانت تحيطُ بالعربةِ مجموعةٌ من فقراء الهندوس الذين كانوا يقومونَ بحركات تشنجيّة ، وقد جُرِحَتْ أجسادُهم ، وأخذ الدّمُ يقْطُرُ منها . وكان يسير وراءهم

عددٌ من الكهنة البرهميين ، بملابسهمُ الشرقية الفخْمة ، ويجُرّون بينهم امرأةً تترنحُ ولا تكادُ تمسكُ نفسَها .

كانت هذه المرأةُ بيضاءَ البشَرة ، بارعةَ الجمالِ تكسوها الحُليّ والمجوْهرات في مختلِفِ أنحاء جسَدِها: على رأسِها وصدْرِها وكتفيْها وفي جيدِها وذراعيْها وأصابعِها . وكان يسيرُ وراءها نفرٌ من الحرَس المدجّجين بالسّلاح ، يمسكون بسيوفهم خارجَ أغمادها ، ويحملون على محفّة ، جثّةَ رجلٍ عجوزٍ ، عليه حُلّةٌ منسوجة بخيوط الذهب والحرير ، وتكسو منطقته وعمامته الأحجار الكريمة ، ذلك أن هذا الميت كان أحد الأمراء الهنود . ويختم هذا الموكب جماعة صاخبة من الموسيقيين والمشيعين المتعصبين .

فسأل السير فرنسيس الدليل ، بعد أن ابتعد الموكب :

« سوتي . أليس كذلك ؟ »

فهزّ المجوسي رأسه بالإيجاب .. قال فيليس فوغ :

« وماذا يكون السوتي هذا ؟ »

أجاب قائد اللواء :

« إنه أضحية بشرية ، يا سيدي ، ولكن طوْعيّة . أرأيت هذه المرأة الشابة ؟ ! .. إنها ستحرق غداً ، في

الصباح الباكر ، مع جثمان زوجها الراجا !»

وروى الدليل أن هذه المرأة مسوقة إلى الحرق قسراً ، لأن قصتها معروفة في المنطقة ، وإذا كانت لا تقاوم ، فذلك لأنهم خدّروها بدخان القِنّب وبالأفيون .

قال فيليس فوغ للعميد :

« هيا بنا نحاول إنقاذ هذه المسكينة .. فلديّ اثنتا عشرة ساعة أستطيع أن أضحي بها ! »

١٣ . الجرأة تصنع العجائب

كان المشروع صعب التنفيذ ، حتى ليكاد يكون مستحيلاً . وقد يخسر فيه فيليس فوغ حياته ، أو على الأقل حريته ، أما رحلته ورهانه فعليها السلام .

وقد تحمس باسبارتو لمشروع سيده ، وأيقن نهائياً أن داخل ذلك الهيكل الثلجي قلباً نابضاً بالإنسانية ، ومن أجل هذا بدأ يشعرُ لفيليَس بمحبةٍ صادقة عميقة .

ولكنْ ما هو موقفُ الدليل ؟.. طرحَ العميدُ عليه هذا السؤال بصراحة ، فأجاب :

« سيدي الضابط ! أنا مجوسيّ والمرأةُ مجوسية ، لذا فأنا طَوْع أمرِكم ! »

كان عليهم أن ينتظروا الليلَ لبدء محاولتهم . وفي أثناء ذلك قدّم إليهم الدليلُ بعضَ التفاصيلِ فيما يتعلقُ بتلك المرأة ، التي كانت تدعى « آوودا » . قال إنها هنديةٌ من أصلٍ فارسيّ . وهي ابنةُ أحدِ كبارِ التجار في مدينة بومباي التي نشأت فيها ، وتلقّت علومَها في أرقى معاهدها . ونظراً لثقافتِها الانكليزيةِ وبياضِ بشرتِها كان كلُّ من يراها يحسبُ أنها انكليزية . وقد اشتهرَ جمالُها في كافة الأنحاء ، فلما مات أبواها زُوِّجت رغمَ إرادتِها من أمير « بندلكند» العجوز . ولم يلبث هذا الزّوجُ أن لقِي حتفه فهربتْ حتى لا تُحرق معه ، ولكن سُرْعانَ ما قبض عليها ، وها هُمْ يَسوقونها مخدّرة إلى المحرَقة عند معبد « بيلاجي » ، تلك القريةِ الصغيرة التي تقعُ على مسافةِ ميلَيْنِ من هذا المكان .

بعد هذا ساروا في اتجاهِ القريَة ، وكَمَنوا على مسافة نحوٍ من خمسمئةِ خطوةٍ من المعبد ، الذي وُضعَتْ فيه المرأة ، والذي كان يَعْرِفُ الدليلُ مداخلَه ومخارجَه .

ولما حلّ الظلامُ . واختفَتْ أصواتُ المشيّعين ، الذين كانوا ، في العادة ، يتناولون مخدّراً ، هو عبارة عن أفيونٍ سائل ، مُشْبَع بدخان القنّب ينوّمهم كالحجارة ، تقدم فيليس وصحبه ، ليدوروا حول المعبد ويتعرّفوا المكانَ .

وقفوا على ضفةِ نهرٍ صغير ، فرأوا في الجانبِ الآخرِ ،

وعلى ضوء المشاعلِ ، كومةٌ من الحطب . كانت تلك هي المحرَقة ، التي سُجّي فوقها الأميرُ المتوفى ، وهي من خشب الصندَلِ الذي تُصَبُّ عليه الزيوتُ المعطّرة . وكانت المَحرَقة على نحو مئةِ خطوةٍ من المعبد ، الذي ترتفعُ مناراتُه في السماء .

واقتربَ الرجالُ عبرَ الغابة ، فشاهدوا المشيّعين ، رجالاً ونساءً وأطفالاً ، يرقُدونَ على الأرضِ مختلطين ، وقد ارتفعَ شخيرُ البعض منهم . أما حرسُ المهراجا ، فقد كانوا يتمشون ، جيئةً وذهاباً ، أمامَ باب المعبد ، والسيوف في أيديهم مجردة . إذن فقد كان من المستحيل الدخولُ إلى المعبد .

وانتظروا إلى منتصف الليل ، علّ الحرسَ يغلبُهم النعاسُ ، فلم تتغيّر الحال . فذهبوا إلى ظهر المَعبد ، فلم يجدوا أحداً ، فعمَدوا إلى سكاكينهم وراحوا يحفرون في الجدار الذي كان من الخشب واللّبِن . ولكنْ لم يمضِ على عملهم هذا طويلُ وقتٍ حتى سمعوا نداءً من الداخل ، فسارعوا إلى الابتعادِ والاستخفاء وراء الأشجار . وما هي سوى لحظاتٍ حتى جاء عددٌ من الحرس ، ووقفوا عند ظهر المعبد .

بعد هذا لم يكنْ أمامَهمْ سوى الرحيل . ولكن فيلِيَس فوغ قال :

« لننتظرْ ، فقد يواتينا الحظ ! .. يكفي أن أكونَ قبل ظهرِ الغد في الله أباد ! »

وكان باسبارتو قد صعد فوق شجرة باسقة تتدلّى فروعُها حتى الأرض . هل كان يُفكّرُ في مجازَفة ؟ .. من يدري ؟ .. ومع هذا فقد كان الوقتُ يمضي دون أن يَحدُثَ شيء . وبدأتْ أشعةُ الفجر تَنبَثُّ في سَواد الليل : لقد أزفَ الوقت ! هنالك نهضَ الجمع ، وثار الضجيجُ ، وقُرعَتِ الطبول ، حتى لكأنه يومُ الحشر . وسُرعانَ ما اقتربَ مِشعَلٌ من المحرَقة ، بعد أن بُسِطَتْ عليها الضحيةُ فاقدةَ الشعور ، فشبّت النارُ في الخشبِ المشبَع بالزيوت . وأراد فوغ أن يندفعَ لإنقاذِ المرأة . فأمسكَ به السير فرنسيس والدليل .

وفجأةً أطلقَ الجمعُ صرخةَ رعبٍ مُدَوِّيَة : ذلك أن المهراجا نهض واقفاً فوقَ المَحرَقة ، وهو يحمِلُ زوجتَهُ بين يدَيْهِ ، ثم قفزَ بين سُحُبِ الدخان ، التي ظهر المهراجا وسطها شبحاً من الأشباح . ومرّ على فيلِيَس وصَحْبِهِ ، وقال ، وهو ما زالَ يعدو وعلى ذراعيه المرأةُ بلا حراك : « هيا ! » .

كان ذلك هو باسبارتو البهلوان والإطفائي الذي تسلّل بين الأدْخِنَةِ وخَطَفَ الضّحيّة من أيدي جلاّديها .

بَعْدَ لحظات كان الجميعُ فَوْقَ فيلِهِم السريعِ ومَعَهُمُ المرأة . ولكنْ سُرْعانَ ما اكتُشِفَ أمرُهُم ، فانطلقتْ في إثرهِمُ الصيحات . وأصابَتْ رصاصة قبعةَ فيلْيَس فوغ . ولكنهم نجَوْا ، وابتعَدُوا عن متناولِ الرصاص .

١٤ . خذ هذا الفيل هدية

شدّ السير فرنسيس كرومارتي على يد باسبارتو الجريء بحرارة ، وهنأه على شجاعتِه الفائقة . أما فيلْيَس فوغ فقد قال له : « أحسنت ! » . وفي الساعةِ العاشرةِ كانوا يدخلونَ مدينةَ الله أباد ، التي يعودُ فيها الخطّ الحديديُّ ليستأنفَ السير نحو كلكوتا .

ووُضِعَتِ المرأة ، التي كانت لا تزال تحت تأثير المخدّر ، في إحدى غرف المحطة ، وأرسلَ فوغ خادمَهُ ليشتريَ لها ملابس أوربية ، مُطْلِقاً يَدَهُ في دَفْعِ أيّ مبلغ من المال . ووجدَ الخادمُ ضالّتَهُ عند تاجرٍ يهوديّ ، بعد أن طافَ المدينةَ كلّها دون أن يعثُرَ على ملابسَ من هذا النوع . واستغلّ اليهوديُّ لهفةَ الخادمِ الفرنسيّ ، فرفعَ عليه الأسعارَ بطريقةٍ غيرِ معقولة .

عندما عادَ باسبارتو إلى المحطّةِ كانت السيدةُ آوودا قد بدأتْ تعودُ إلى وَعيها ، وبدأتْ عيناها الجميلتان تستردّانِ السّحْرَ والصفاء . ثم انطلق لسانُها بلغةٍ انكليزيةٍ تَدُلُّ على ثقافتها الممتازة .

وكان القطارُ على وَشْكِ التّحرّك ، بينما وقف الدليلُ المجوسيُّ ينتظر حسابه . وأقبل عليه فوغ يعطيه أجْرَهُ محرّراً بالبنس ، دون زيادة أو نقصان . فأزعج ذلك باسبارتو الذي كان يرى أن هذا الدليلَ الشجاعَ الذي عرّضَ نفسَهُ للهلاك ، يستحقُّ مكافأةً محترمة .

وبعد أن صفّى فيلْيَس حسابَ الدليلِ قالَ له :

« أيّها المجوسيّ ! لقد كنتَ مثالَ التفاني والإخلاص .. إنني دفعتُ أجرَ خدمتِكَ ، ولم أدفعْ ثمنَ تفانيك .. خُذْ هذا الفيلَ هديةً مني إليك ! »

فبرقت عينا الشابّ ، وقال :

« إنك تمنحُني ثروةً ، يا سيدي ! »

— « أرجو أن تقبلَ الهديّة .. ورغمَ ذلك سأكونُ مَديناً لك ! »

فصاح باسبارتو :

« مَرْحَى ! .. إقبَلْ ، أيّها الصّديق ، فإن « كيومي » حيوانٌ لطيفٌ وجريء ! »

ثم تحوّل إلى كيومي يقدّم إليه قِطَعَ السكّر. فصدرَتْ عن الحيوانِ الذكيّ همهمةٌ تدلُّ على الرضا، ثم لفَّ خرطومَهُ حولَ وسطِ باسبارتو ورفعَه إلى مُستوى رأسه.

بعدَ لحظاتٍ كان فوغ والعميد وباسبارتو يحتلّون مقصورةً، في أرفع مكانٍ منها تجلسُ السيدةُ آوودا، ويتجهون بسرعةٍ نحو بيناريس، التي تفصلُها عن «الله أباد» مسافةُ ثمانين ميلاً قطعَها القطارُ في ساعتين.

في هذا الوقتِ عادتِ السيدةُ آوودا إلى كاملِ وعيها، فوجدَتْ نفسَها بين أناسٍ لا تعرفُهم. وتولّى العميدُ شرحَ كلّ ما حدث. فشكرتِ السيدةُ الشابةُ مُنقذيها بالدموعِ أكثرَ مما شكرتْهم بالكلماتِ العذْبة. وعرضَ فوغ عليها أن يأخذَها إلى هونغ كونغ حتى لا تتعرّضَ للخطر. فوافقت على ذلك، وقالت إن لها قريباً يقطنُ هذه المدينةَ، وهو من كبار تُجّارها.

في الساعةِ الثانيةَ عشرةَ والنصفِ توقّفَ القطارُ في محطة بيناريس، تلك المدينة الأسطورية، التي هي، بالنسبة إلى الهند، كأثينا بالنسبة إلى اليونان. وكانت هي هدفَ السير فرنسيس كرومارتي، الذي شكر فيليس فوغ بحرارة وودع السيدة آوودا وباسبارتو.

ومضى ليلحقَ بقوّاته المرابطة على بضعةِ أميالٍ شماليّ المدينة.

بعد بيناريس كانت سكةُ الحديدِ تقطعُ مسافةً كبيرة في محاذاة نهرِ الكنج المقدّس. فبدَتْ لأنظار المسافرين الجبالُ المكسوّةُ بالخُضْرة وسهولُ القمح والذُّرة والشعيرِ الشاسعة، والبحيراتُ التي تظهر على شُطآنها التماسيحُ الضاريةُ إلى الخُضْرة.

وأقبل الليل فكان يُسمع زئيرُ النَّمِرة، وأصواتُ الدِّبَبَة والذئاب التي كانت تنطلقُ هاربةً لدى مرورِ القاطرةِ الرهيبة.

وفي الساعة السابعةِ من الصباح وصل القطار إلى كلكوتا، وكانتِ الباخرةُ المسافرةُ إلى هونغ كونغ سترفعُ مراسيَها ظهراً. إذن فقد كان أمام فيليس فوغ خمسُ ساعات. لقد كان عليه، حسَبَ برنامجه، أن يصلَ يومَ ٢٥ تشرين الأول، وها هو يصلُ في نفس هذا اليوم، بمعنى أن اليومينِ اللذينِ كان قد كسبَهما، أفلتا من يديْه مرةً أخرى.

١٥ . خسائر جديدة

عندما هبط فيليس فوغ من القطار ، كان همّه الأول أن يتوجّه فوراً إلى الباخرة ليؤمن على السيدة آوودا ، نظراً للخطر الذي يتهدّدها في كل لحظة ما دامت على الأرض الهندية . وبينما هو يهمّ بالتوجه إلى الميناء تقدّم منه أحد رجال الأمن وسأله :

« هل أنتَ السيد فيليس فوغ ؟ »

— « نعم ! »

— « وهل هذا الرجلُ هو خادمُك ؟ »

— « نعم ! »

— « إتبعاني ، من فضلكما ! »

وسأله السيد فوغ :

« أتستطيعُ هذه السيدةُ أن ترافقنا ؟ »

— « لا مانع ! »

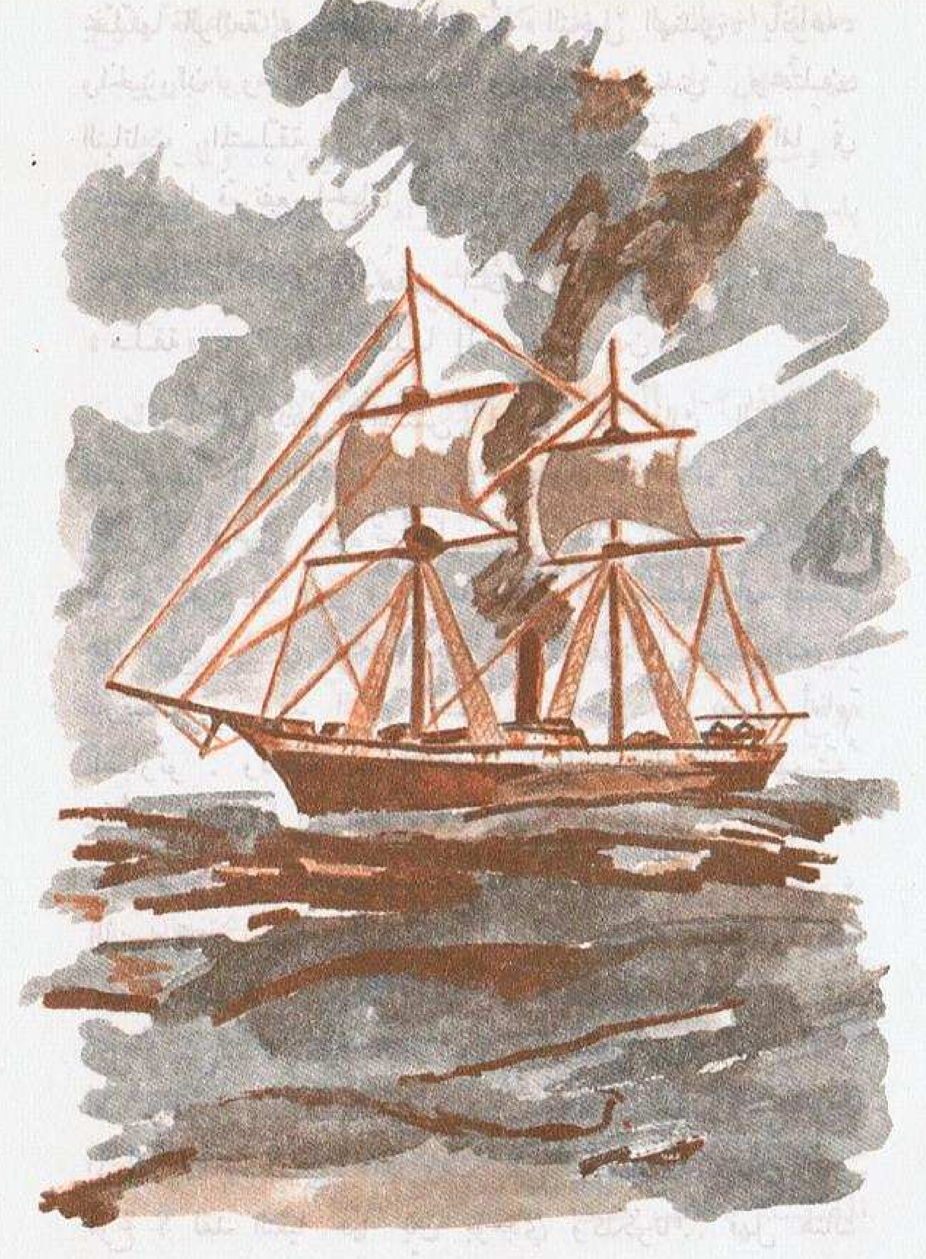
فأخذهم في عربة « بالكي غاري » بحصانين ، واجتاز بها الجزء الوطني ثم الجزء الأوربي من المدينة ، وأنزلهم أمام بناء تبدو عليه البساطة ، ثم أدخلهم إلى غرفة على نوافذها قضبان من الحديد ، وقال لفيليس وباسبارتو :

« ستمثلان أمام القاضي « أوبادياه » في الثامنة والنصف ! »

ثم تركهم وأغلق عليهم الباب .

وقد مثل فوغ وباسبارتو أمام القاضي الذي أعلن لهما أنهما متهمان من قبل ثلاثة من الكهنة البرهانيين ، الذين كانوا حاضرين ، بالاعتداء على المقدّسات الدينية . وتأييداً للتهمة أخرج القاضي حذاء باسبارتو ، ووضعه على المنضدة أمامه في قاعة المحكمة .

وكان يقبع في زاوية من زوايا القاعة الشرطي فيكس ، الذي كان يتابع المحاكمة . لقد كان مهتماً بإعاقة فيليس فوغ لأن مذكرة التوقيف لم تصل بعد . ولكم كانت فرحته عظيمة عندما صدر الحكم على باسبارتو بالسجن لمدة خمسة عشر يوماً وبغرامة مقدارها ثلاثمئة جنيه ، وعلى فيليس فوغ بالسجن لمدة ثمانية أيام وبغرامة قدرها مئة وخمسون جنيهاً ، لأنه مسؤول عن تصرفات خادمه . ولكن فيليس فوغ دفع ضمانة مقدارها ألفان من الجنيهات لتأجيل تنفيذ السجن ، وركب وصاحبيه عربة واتجه إلى الميناء . في هذا الوقت كان الشرطي فيكس يتميز من الغيظ ، لأن فوغ أفلت مرة أخرى ، من ناحية ، ولأن المبلغ المسروق يتناقص كثيراً ، من الناحية الأخرى . وقد جرى وراء العربة ، مصمماً على اللحاق بفوغ إلى أقاصي المعمورة .



الباخرة رانغون ٣

١٦ . على ظهر السفينة رانغون

كانت الباخرةُ رانغون ، التي أبحرَ الثلاثةُ على ظهرِها، تُشْبِهُ « المنغوليا » من حيثُ السرعةُ ، ولكنها ليستْ مُريحةً مِثْلَها . وكان فيليس يرجو أن تكونَ أفضلَ مما هي عليه لكي تُتاحَ للسيدة آوودا رحلةٌ أكثرُ إمتاعاً وترْفيهاً . ولكنْ إنْ هي إلا رحلة أحدَ عشرَ أو اثنيْ عشرَ يوماً ، لأن المسافةَ تبلغُ ثلاثةَ آلافٍ وخمسمئة ميل .

في الأيام الأولى ازدادتِ السيدةُ آوودا معرفةً بفليس فوغ ، الذي كان يستمعُ إلى أحاديثها ببرودتِهِ المعهودة . ولكنَّ باسبارتو حدثَّها الكثيرَ عن غرابة سيّده، وأخبرَها بمسألةِ الرّهان والدّورانِ حولَ العالم ، فابتسمتْ دون أن تعلّقَ بشيء ، لأنها تشعرُ بامتنانٍ عميق للسيد فوغ الذي أعادَ إليها الحياة .

مرّتْ هذه المرحلةُ الأولى في أحسنِ الظروف ، فقد كان هذا الجزءُ من « خليج البنغال » مؤاتياً لسيْرِ الباخرة . وظهرت مجموعةُ جزرِ الخليج ، وأكبرها « عندمان الكبرى » ، التي يرتفعُ جبلُها الشامخُ ، « سيدل بيك » ، ألفيْنِ واربعمئةِ مترٍ ، وراحتِ السفينةُ تمخرُ عُبابَ البحر على مقربةٍ من شاطىء الجزيرة ، وقد بدتِ الجزر

بحلّتها الرائعة ، تغطّيها غاباتُ « النخيل الهندي » بأنواعه ، والخيزران وجوز الطّيبِ والدُّلب الهنديّ ومختلف النباتاتِ المتسلّقة . هذا في واجهةِ الجُزُر ، أما في خلفيّتِها فترتفعُ الجبالُ الخضراء .

وتخطّتِ الباخرةُ هذه الجُزُرَ مُتّجِهةً إلى مَضيق « ملَقة » ، الذي يَنقُلُها إلى بحار الصين .

ماذا كان يفعلُ المفتشُ فيكس في ذلكَ الوقت ؟ لقد صعدَ إلى الباخرة رانغون ، دونَ أن يراه باسبارتو ، بعد أن أوصى بأن تُرسَلَ إليه مذكّرةُ التوقيفِ إلى هونغ كونغ ، فورَ وُرودِها. ذلك أنه يستطيع أن يقبض على فوغ ، في هذه المدينةِ ، لوجودِها تحتَ النفوذِ البريطاني . وقد التزمَ حُجرتَهُ حتى لا يظهرَ أمامَ باسبارتو . ولكنّه بعدَ تفكيرٍ طويل رأى أن مهمّتَهُ ستُخفقُ نهائياً إن أفلتَ منه فيلِيس في هونغ كونغ أيضاً . لهذا قرّر أن يكشفَ شخصيتَهُ أمامَ الخادمِ الفرنسي ، الذي قد يُعينه . ولكنّ المسألةَ بالغةُ الدقة ، فقد يخبرُ باسبارتو سيّدَهُ بذلك ، فتفسُدُ الخطةُ ويَضيعُ كلُّ شيء ، لهذا كان متردّداً بعض الشيء . غيرَ أنّ وجودَ السيّدة آوودا شغَلَ بالَهُ . مَنْ هي هذه المرأة ؟ وما هيَ الظروف التي جمَعَتْ بينها وبين فوغ ؟ لقد التقيا حتماً بين بومباي وكلكوتا .. فهل هناك

حادثةُ اختطاف ؟ إذا كان الأمرُ كذلك فإن إعاقةَ فوغ من أسهل ما وجِد . لهذا صمّمَ على لقاء باسبارتو .

وسُرعانَ ما صعدَ إلى ظهرِ السفينة ، ولما لَقِيَ باسبارتو تَصنّعَ الدّهشَ أن يراهُ في الباخرة رانغون ، كما أعربَ عن فرَحِهِ الشديدِ برؤيته .. قال باسبارتو دَهِشاً :

« ماذا ؟ ! أأنت أيضاً تدورُ حولَ الأرض ؟ ! » ، وكيف لم أرَكَ حتى الآن ؟ »

فأجاب فيكس بأنه سيتوقّفُ في هونغ كونغ ، وأنه لازمَ حجرتَهُ بسبب دُوارِ البحر . ثم أخذ يحادثُهُ ، فعرَفَ منه سرّ المرأة ، وعرف أن فوغ سيُوصِلُها إلى هونغ كونغ ، عندَ قريبِها .

١٧ . احاديث وشكوك

منذ ذلكَ اليومِ صار باسبارتو والشرطيُّ يجتمعان في أغلبِ الأحيان ، ولكنّ هذا باتَ أكثرَ تحفّظاً مع الخادمِ الفرنسي ، وامتنعَ عن سَحْبِ المعلومات منه . ولم يرَ فوغ سوى مرّة أو مرّتين في البهْوِ الكبير ، حيث يجلسُ هذا إلى السيّدة آوودا أو يعكفُ على لعبتِهِ المُفضّلة ، الهوِيسْت .

أما باسبارتو فقد شغلَتْ فكرَهُ تلك المصادفةُ العجيبةُ ، فلقد قال فيكس إنه سيقيمُ في بومباي .. ثم ها هو يجدُهُ على ظَهْرِ الباخرة رانغون ذاهباً إلى هونغ. كونغ.. ألا يَدْعو هذا إلى التساؤل ؟ .. ولكن .. أنّى لباسبارتو أن يخطُرَ له أن سيّدَهُ ملاحقٌ كسارق ؟ ! .. على أن تفكيرَهُ هداهُ إلى أن فيكس مُرْسَلٌ من قِبَلِ أعضاء النادي لِيَرَوْا إن كان فيلْيَس فوغ قد دارَ حولَ العالم .

ولدى هذا الاكتشافِ الرائع رأى باسبارتو أنّهُ ليس من اللياقة والأدبِ في شيء أن يَضَعَ أعضاءُ نادي الاصلاح جاسوساً في أثر زميلِهم فيلْيَس فوغ ، الرجلِ الصادقِ الشريف . ولكنه وَطّدَ العزمَ ، مع ذلك ، على ألا يخبرَ سيّدَهُ بما توصلَ إليه ، حتى لا يتأثّر من سوء نيّة الرجل . على أنه نوى أن يدغدغ فيكس ، عند أول فرصة ، بكلامٍ مُبَطّنٍ غير صريح .

بعد ظُهْرِ الأربعاء في الثلاثينَ من تشرينَ الأول كانت الباخرةُ تجتازُ مَضيقَ « ملَقّة » ، الذي يَفْصِل شبهَ جزيرة مَلَقة عن جزيرة سُومَطْرَة . وكانت بعضُ الجُزُرِ الصغيرةِ تحْجُبُ ، بمُرْتَفَعاتِها الوَعْرَةِ الرائعةِ ، أرضَ الجزيرة الكبيرة عن أعيُنِ المسافرين .

وفي الرابعةِ من صباحِ اليومِ التالي رَسَتِ السفينة

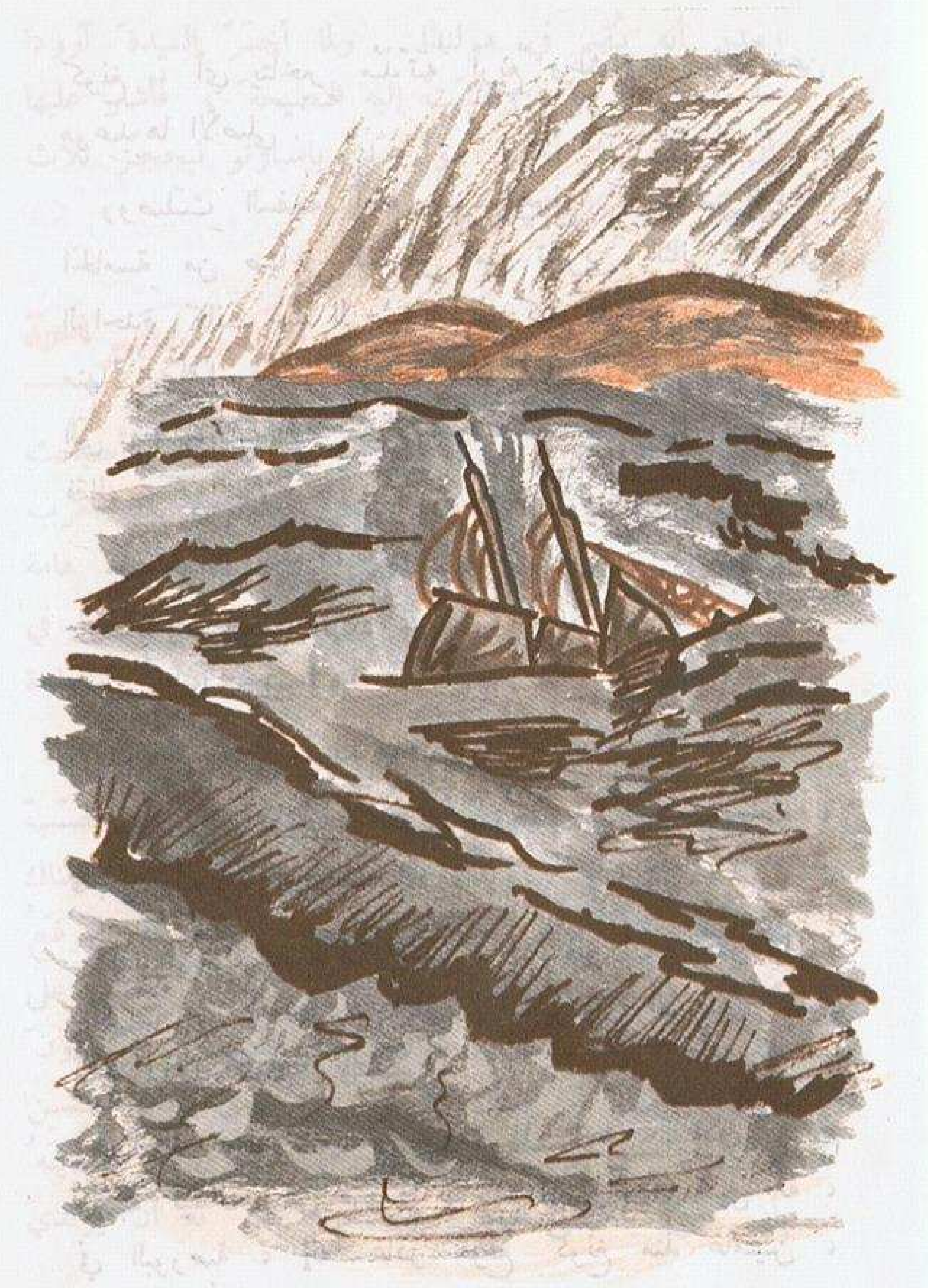
في سنغافورة كي تتزَوّدَ بالوَقود ، بعد أن تخطّت برنامجَها العاديّ بنِصفِ يوم . فسجّل فوغ هذه الساعاتِ في خانةِ المكاسب ، ونزلَ إلى الأرضِ لأن السيدة آوودا أعربَتْ عن رغبتِها في مشاهدةِ المدينة . وكان على أثرِها ، بالطبع ، الشرطي فيكس ، الذي لاحظ باسبارتو مناورتَهُ تماماً في هذه المرة .

إن سنغافورة لا تتميّزُ لا بالاتساعِ ولا بالمرتفعات ، ولكنها عبارة عن خميلةٍ واسعةٍ تشقّها الطّرُقات . وقد ركبَ فوغ ورفيقتُهُ عَرَبةً وسارا بين كُتَلِ النخيل وغيرِها من نباتاتٍ وأزهارِ تلك المدينة التي تقوم سياجات الفلفلِ فيها بَدَلَ الشوك و «العليق» ، كما في أوربا وغيرها.

وفي الساعةِ العاشرةِ عادا إلى السفينة، حيث كان ينتظرُهما باسبارتو ، وفي أثرِهما مفتشُ الشرطة . وبعد ساعة أقلعَتْ « الرانغون » . ولم تمضِ ساعاتٌ حتى غابَتْ عن أنظار المسافرين جبالُ مَلَقةَ المرتفعةُ التي تَضمُّ غاباتُها أجملَ النمورِ في العالم .

وتغيّر الطقس ، وانتفخ البحر ، ولكنّ الرياحَ ، الهابّة من الجنوب الشرقي ، ساعدت السفينةَ ، التي رفعَتْ بعضَ أشرعَتِها لتدعمَ قوّةَ البُخار . وعلى هذا النحوِ سارَتْ على طولِ سواحل « أنام » وكوشنشين .

وعلى أثرِ حديثٍ جرى بين باسبارتو وفيكس ، بدا



عواصف وبحر هائج ٤

لهذا الأخير كأنّ الخادمَ الفرنسيّ قد كشَفَ أمرَهُ ، فقرّرَ أن يتحدّثَ إليه بصراحة ، إذا أزمَعَ سيّدُهُ على السفرِ إلى خارجِ المنطقةِ البريطانية ، وفي هذه الحالة سيعرِفُ إن كان باسبارتو متواطئاً مع « فوغ » أم لا .

١٨ . الوصول الى هونغ كونغ

في الأيامِ الأولى من تشرينَ الثاني بدأ الطقسُ يزدادُ سوءاً ، وفي الثالث منه هبّتْ عاصفةٌ شديدةٌ ، ألجأت السفينةَ إلى طيّ أشرِعتِها وتخفيفِ دَوَرانِ مِروحتها وبذلكَ انخفضتْ سُرعتها ، مما حمل على الظنّ بأنها ستتأخرُ في الوصول إلى هونغ كونغ نحوِ عشرينَ ساعةً ، وأكثرَ عن الموعد المقرّر . وهذا بالطبع سيُفسِدُ رحلة فوغ ، الذي ينبغي أن يأخذَ الباخرةَ المسافرةَ إلى يوكوهاما باليابان يوم ٦ تشرين الثاني .

وكان فيليس فوغ ينظرُ إلى ما يجري بهدوئهِ المعتاد ، في حينَ أن باسبارتو كان في غاية الغضب بسبب هذا التأخّر ، لأنه أصبحَ متحمساً لنجاحِ الرّحلَةِ إلى أقصى الدرجات .

على أنّ العاصفةَ سكنَتْ في الرابعِ من الشهر ، وأعلِنَ أن الباخرة ستصلُ في السادسِ منه إلى هونغ

كونغ ، أي بتأخيرٍ مُدّتَهُ أربعٌ وعشرونَ ساعةً عن موعِدِها الأصلي .

ووصلَتِ السفينةُ أمامَ ميناءِ هونغ كونغ في الساعةِ الخامسةِ من صباحِ السادسِ من تشرينَ الثاني ، وفي الواحدةِ كانت عند الرصيف ، وكان المسافرونَ يهبطونَ منها . وأقبل فيليس على الرُبّان بعد أن نظرَ في اللائحةِ التي معه ، يَسألُهُ متى تبحرُ أولُ سفينةٍ إلى يوكوهاما فقال :

— « غداً ! »

— « وما اسمها ؟ »

— « الكارناتيك ! »

— « ألم يكنْ موعِدُها أمس ! ؟ »

— « بلى ! ولكنْ كان يُعوزُها بعضُ الإصلاحات ، فأجّلَ سفَرُها إلى الغد ! »

لقد خدمت الصدْفَةُ فيليس فوغ ، فلو أن « الكارناتيك » سافرت يوم ٥ تشرينَ الثاني لاضطُرَّ إلى الانتظارِ ثمانيةَ أيامٍ ليأخذَ السفينةَ التالية .

وأخذَ فوغ السيّدةَ آوودا إلى أحدِ الفنادق ، ثم ذهبَ ليسألَ عن قريبِها التاجرِ المعروف . فقيلَ له ، في البورصة ، إنهُ غادرَ هونغ كونغ منذ عامَيْن ،

ويبدو أنه يُقيم في هولندا . ولما أخبرَ السيدةَ آوودا حارَتْ في أمرها ، وطلبَتْ إليه النصيحةَ ، فأشارَ عليها بأن ترافقَهُ إلى أوروبا ، وأرسلَ باسبارتو ليحجزَ ثلاث حُجَرٍ في الكاراناتيك .

١٩ . فيكس يتكلم بصراحة

إنَّ هونغ كونغ عبارةٌ عن جزيرةٍ صغيرةٍ ، أصبحت مِلْكاً لبريطانيا طبقاً لمعاهدة نانكنغ المعقودةِ بعد حرب ١٨٤٢ . وقد أنشأتْ فيها الدولةُ المستعمِرَةُ مدينةً هامة ومرفأً ، هو مرفأ فيكتوريا . من أجلِ مصالحها في الشرق الأقصى . وسُرْعانَ ما أصبحَ أغلبُ التجارة الصينية يتمّ عن طريقها .

راح باسبارتو يتجوّلُ في ميناء فيكتوريا . على مَصَبِّ نهر « كانتون » ، ويداهُ في جيبيه . لقد كانتْ هناك مجموعةٌ كبيرةٌ من السُفُنِ التجاريةِ والحربيةِ ترْفَعُ مختلِفَ الأعلام . وتوجهَ إلى محلِّ حلاقٍ ليحلقَ على الطريقة الصينية . فرأى طائفةً من المُسنِّينَ يرْتَدُونَ اللونَ الأصفر . فسأل المزيّنَ ، الذي كان يُحسِن الانكليزيةَ ، عن هذا التوافقِ في الذَوْق . فأجابَهُ بأنَّ مَنْ يتخطّى الثمانينَ من العمرِ يحقّ له أن يرتدي

الملابس الصفراء ، وذلك نوعٌ من الامتيازات لأن اللونَ الأصفر هو اللونُ الامبراطوري .

بعد ذلك توَجّه ناحيةَ السفينةِ « الكارناتيك » ، فوجَدَ فيكس يروحُ ويجيء على الرصيف . لقد كان المفتشُ في ضيقٍ ظاهر ، ذلك أن مذكّرةَ التوقيفِ لا يمكنُ أن تصلَ إلى يده إلا إذا توقّف أياماً في إحدى المحطات . ولما كانت هونغ كونغ هي آخرَ أرضٍ انكليزية يستطيعُ أن يقبضَ على متّهَمه فيها ، فإن هذا سيُفلِتُ منه إذا لم يتمكنْ من تعطيلِ رحلتِه . قال له باسبارتو :

« إيه ، يا سيّد فيكس ! هل قرّرتَ أن تسافرَ معنا إلى اميركا ؟ ! »

— « نعم ! »

فقهْقَهَ الشابُ الفرنسيُ ، وقال :

« تعالَ إذنْ لنحجزَ أماكنَنا معاً ! »

ودَخلا إلى مكتبِ السفَريّات وحجزا أربعةَ أماكن . غير أن الموظف نبّههُما إلى أنّ الاصلاحات في « الكارناتيك » قد انتهت ، ولهذا فإن السفينةَ ستَبْحُر في الثامنةِ من نفسِ اليوم ، لا في اليوم التالي .

بعد ذلك دعا فيكس باسبارتو إلى تناول كأسٍ في أحد الحانات ، وهو يُبَيّت شيئاً في نفسِه ، لأنّ

الوسيلةَ الوحيدةَ لوضعِ يده على فوغ هي استبقاؤُه في هونغ كونغ عدّةَ أيام .

ودخلا حانةً كان فيها مجموعةٌ من ذوي السّحَنِ التي لا يُركَنُ اليها ، وكانوا يتناولونَ مختلفَ المشروبات ويدخنون الأفيونَ في غلايين من الفخّار الأحمر . وطلب فيكس زجاجتَيْن من « البورتو » راح باسبارتو يَعُبُّ منها عبّاً ، بينما يراقبُهُ المفتش ويَرْشُفُ القليل . ولما انتهت الزجاجتانِ نهض باسبارتو ليُخبرَ سيده بتغيرِ موْعِدَ السفر . فاستبْقاه فيكس ، وطلب زجاجةً جديدةً من البراندي . ثم أطْلَعَهُ على صفته الحقيقية ، وأخبرَهُ بالسرِقة التي حدَثَتْ في مَصْرَف انكلترا يوم ٢٨ أيلول ، وقال إنّ أوصافَ الجاني تنطبقُ على السيد فوغ ، وإن الرهانَ لم يكن سوى وسيلةٍ لتضليلِ العدالة . فضربَ باسبارتو ، الذي بدأ البرانديّ يُدير رأسَه ، بقبضته على المائدة وصاح :

« إنّ سيدي أشرفُ رجلٍ في العالم ! »

فقال له المفتش :

« أتريد أن يُقبَضَ عليك معه ؟ ! »

لقد أسقِطَ في يدِ الخادم الطيّب ، الذي كان يؤمِن كلّ الايمانِ ببراءةِ سيّدِه . ولكنّ تصريحَ الشرطيِ

هزّ كيانَهُ فقال له :

« وماذا تريدُ مني ، أنا ؟ »

— « أريدُ منك استبقاءَ السيد فوغ في هذه المدينة إلى أن تصِلَ مذكّرةُ التوقيف ! ... وسأقاسمك مكافأةَ الألفَيْ جنيه ! »

فرفضَ باسبارتو أن يتواطأَ معَهُ حتى لو أعطاه ذهبَ الأرض ، وحتى لو كان سيّدُه هو السارق فعلاً ، لأنه لم يرَ منه إلا الكرمَ والشهامة . ونهض باسبارتو ، ولكنه انهار على كرسيّه من السكْر . فقال له فيكس :

« إعتبر كأن هذا الحديثَ لم يجرِ بيننا ، ولْنَشْرَبْ ! »

— « أجل ! لِنشرَبْ ! »

وأراد فيكس أن يُفقِدَهُ صوابَهُ بصورةٍ نهائية ، حتى لا يَعرِفَ فوغ موعِدَ الباخرة ، فدسّ في يده أحد غلايينِ الأفيون . وما هي سوى لحظات حتى غرِقَ الخادمُ الفرنسي الساذَجُ في نومٍ عميقٍ تحتَ تأثيرِ المخدّر الرهيب .

٢٠ . صِلات جديدة

طافَ السيد فوغ بالسيّدة آوودا أنحاءَ المدينةِ واشترى لها كافّةَ الأشياءِ التي تحتاجُ إليها في رحلةٍ طويلة . وقد

كانت السيدةُ في غايةِ الخجلِ لأنها تحمّلُهُ تكاليفَ باهظةً بعد أن تعرّضَ للموتِ بُغْيَةَ إنقاذها . ولكن السيد فيلْيَس كان يخفّف عنها وَطْأةَ الخجلِ بقوله إن ذلك داخلٌ في مَصْرُوفات الرحلة . بعد ذلك عادا إلى الفندق ، وتناولا العشاء ، ثم صعدت السيدةُ آوودا إلى حُجرتِها ، وقضى فيلْيَس فوغ سَهْرَتَهُ في قراءة « التيمس » و « أنباءِ لندنَ المصورة » .

ولم يَلْحَظِ السيّد فوغ تغيّبَ خادمه إلا في صباح اليومِ التالي ، حيْثُ علِمَ كذلك بسَفَرِ الباخرةِ في اليوم السابق . وتقدّمَ منه رجلٌ ، وقال :

— « هل كنتما ، أنتما ، أيضاً تنويانِ السفرَ على ظهر « الكارناتيك » ؟

— « نعم ، يا سيدي ! »

— « وأنا أيضاً ! .. لقد سافرَتْ قبلَ اثنتَيْ عشرةَ ساعةً من موعدها ، دون أن تَلْفِتَ نظر المسافرين ! والآنَ علينا أن ننتظر ثمانيةَ أيام ! »

لم يكن ذلك سوى رجلِ الأمنِ فيكس ، الذي كان في قِمّةِ السعادة ، لأنه استطاعَ أن يُعيق فوغ هذه المدة . ولكنه فوجىء عندما أجاب فوغ بهدوء :

« هناك سفُنٌ كثيرة ! »

وقدم فيلْيَس فوغ ذراعَهُ للسيدة آوودا وتوجه الاثنان إلى الميناء ليفتّشا عن سفينةٍ أخرى ، فيما كان فيكس يجري مصعوقاً في أثرهما .

وفتّش فوغ ثلاثَ ساعات فلم يَعْثُرْ على ضالّته . وفيما كان يقفُ مفكراً تقدّمَ منه أحدُ الربابنة وعرَضَ عليه خدماته ، ظناً منه أنه يريدُ أن يقوم بنزهة بحرية ، لأنّ سفينتَهُ صغيرةٌ ، لا تتعدّى سعتُها عشرينَ برميلاً . ولما قال له فوغ إنه ذاهبٌ إلى يوكوهاما التي تَبْعُدُ ألفاً وستمئة ميلٍ هالَهُ الأمرُ ورفض رفضاً قاطعاً ، لأنه يعرّضُ بذلك حياةَ رجاله وحياةَ المسافرين لخطر الغرق . ولما أغراه فيلْيَس بالمال اقترحَ حلاً وَسَطاً ، وهو أن يأخذه إلى ناغازاكي . التي تَبْعُدُ ألفاً ومئة ميل ، أو إلى شنغهاي ، وهي على بعد ثمانمئة ميل . فقال فوغ :

« أيّها القبطان ! إنني أريد أن أذهب إلى يوكوهاما لأن وجهتي سان فرانسيسكو ! »

— « وماذا يَضيرُك هذا ؟ إن السفينةَ المتوجهةَ إلى سان فرانسيسكو لا تنطلقُ من يوكوهاما بل من شانغهاي ، وما يوكوهاما وناغازاكي سوى محطتين لها » .

— « هل أنت واثق من ذلك ؟ »

— « كلّ الثقة ! »

— « ومتى تغادرُ شانغهاي ؟ »

— « يوم ١١ تشرين الثاني ! »

— « ومتى تستطيع أنت أن تسافر ؟ »

— « في مدى ساعة من الزمن ! »

— « اتفقنا ! »

ودعا فوغ الشرطي فيكس إلى مرافقتهما إذا شاء ، فقال إنه كان يَوَدُّ أن يطلب منه هذه الخدمة . وفي الساعة الثالثة كان الجميع على ظهر السفينة الشراعية « تانكادير » ، التي يقودها أربعة من البحارة وعلى رأسهم الرُّبّان جون بنسبي . وبعد عشرِ دقائقَ كانت السفينة تمخر عُبابَ البحر .

٢١ . رحلة خطرة

كانت تلكَ مجازَفةً جريئةً حقاً . ذلك أن بحارَ الصين غدّارة ، لكونها معرّضةً للرياح العاصفة في الخريف والربيع ، لذا كان يَرْهَبُها بحارةُ السّفُنِ الكبيرة ، فما بالك بسفينة خفيفة كالتي استأجرها فيليس فوغ . كان فوغ يقف منتصباً وقد باعدَ بين ساقَيْه ،

وراح يتحدثُ إلى الرُّبان ، ويوصيه بالسرعة واليقظة ، بينما جلست السيدةُ آوودا في المؤخرة تنظر إلى المحيطِ الواسعِ . أما فيكس فقد انتحى ناحيةً وأخذ يفكر في الغد ، وكأنه خجلٌ من نفسه ، لأنه يسافرُ على حساب الرجل الذي يرسمُ الخططَ للقبضِ عليه وتسليمه إلى القضاء . ولكن الذي يهوّنُ عليه الأمرَ ويخفي مشاريعه غيابُ باسبارتو الذي قد لا يلتقي سيدَهُ مرةً أخرى . ولا بد أن السيد فيليس فوغ كان يفكر في ذلك الشابِّ المسكينِ الذي خلّفهُ وراءَهُ فارغَ الجيب .

في صباح اليوم التالي ، وهو الثامنُ من الشهر ، كانت السفينة النشيطة قد قطعتْ أكثرَ من مئة ميل . وكان مسجّلُ السرعةِ يدلُّ على أن متوسطَ السرعةِ التي سارت بها يتراوحُ ما بين ٨ و٩ أميال في الساعة ، بمعنى أنها سجّلت الحدَّ الأقصى من سرعتها ، فإذا ظلت الرياحُ مؤاتيةً على هذا النحو فإنَّ الرحلةَ ستتم على أفضل وجه .

في المساء سجّلت السفينةُ مئتينِ وعشرينَ ميلاً عن هونغ كونغ . وفي أواخر الليلِ دخلتْ في مضيق « فو — كيان » ، الذي يفصل جزيرة فورموزا الكبيرةَ عن الساحل الصيني ، وقطعتْ مدارَ السرطان . والبحر في هذا المضيقِ تملأُهُ التياراتُ والدوامات ، لهذا تعبَ رُكاب

السفينةِ ، التي كانت تتراقصُ ، ولم يعدْ في إمكانهم البقاءُ على الظهر .

وفي اليوم التالي راقبَ الرُّبانُ الميزانَ الذي كان يتذبذبُ ، وصار يغمغم . وقد توقّع هبوبَ الإعصار المعروفِ باسم « التيفون » ، لأن الشمسَ في اليوم السابقِ غابت وراء سُحُبٍ حمْراء . وقد اتخذ الرُّبان الإجراءاتِ اللازمةَ ، وطلبَ إلى الرُّكاب أن يهبطوا إلى « الكابين » .

لقد كانت تنبؤات الرُّبان بنسبي في محلها ، فما أقبلت الساعةُ الثامنةُ حتى هبّت الريحُ العاتيةُ وهطلت الأمطارُ الغزيرة ، وأصبحت السفينةُ كالريشةِ الطافيةِ على الأمواج الجبارة . وقد تعرضت عشرينَ مرة لأن تختفي تحت تلك الجبال المائية .

ولقد أبدت السيدةُ آوودا كثيراً من الشجاعة وقوّة الاحتمال ، كأنها كانت تستمدّ الصلابةَ من منقذها فوغ الذي لم يخرُجْ عن هدوئه ، أو أنها تريدُ أن ترتفع إلى مستواه .

واشتدّت العاصفةُ في أثناء الليل حتى إن الرُّبانَ شعرَ بقلق جديّ ، وإذا كانت السفينةُ الخفيفة لم تبتلعْها الأمواجُ العاتيةُ فما كانَ ذلكَ سوى ضربٍ من المعجزات .

وعند ظهر اليوم التالي بدأت تظهر علائم الانفراج . واتضح ذلك عند الغروب ، حيث استطاع الركاب الثلاثة أن يصيبوا شيئاً من الطعام . ومرّ الليل بهدوء ، وعادت السفينة إلى سرعتها القصوى . وفي الحادية عشرة من صباح اليوم التالي ظهر الشاطئ ، وأعلن الربان أنهم قد أصبحوا على مسافة مئة ميل من شانغهاي ، وهي مسافة تقطعها السفينة خلال ذلك النهار . ولولا العاصفة لكانوا ، في تلك اللحظة ، على بعد ثلاثين ميلاً من المدينة الصينية التي ينبغي أن يكون فوغ فيها قبل المساء ، حتى لا تفوته السفينة الأميركية المسافرة إلى سان فرانسيسكو .

ولكن بينما كانت « الترانكادير » لا تزال على بعد ثلاثة أميال من المرفأ ، عند الساعة السابعة ، كانت السفينة الأميركية تخرج منه بادئة رحلتها . فأطلق الربان مدفعاً لعل السفينة تستجيب إلى طلب النجدة وتأتي إلى ناحيته . .

٢٢ . مصائب باسبارتو

في السابع من تشرين الثاني غادرت سفينة « الكارناتيك » هونغ كونغ عند الساعة السادسة والنصف من المساء ،

في طريقها إلى اليابان . وكانت فيها حجرتان فارغتان ، هما حجرتا فيليس فوغ .

وفي صباح اليوم التالي شاهد المسافرون رجلاً مشعث الشعر شارد النظرات ، يسير مترنحاً على ظهر السفينة : ولم يكن ذلك سوى باسبارتو ، خادم فيليس فوغ .. فما الذي حدث له ؟

بعد أن غادر فيكس الحانة أقبل الخدم فحملوا باسبارتو وأرقدوه على سرير مخصص للذين ينطفئون مثله من المدمنين على تعاطي المخدرات . ولكن الهاجس الذي كان في داخله ، بأن عليه واجباً ينبغي أن يؤديه ، جعله ينهض بعد ثلاث ساعات ، ويخرج من الحانة متجهاً نحو الميناء ، وهو في حالة اللاشعور كأن الغريزة هي التي تحركه . وكان يصطدم بهذا الجدار وذاك ، ويقع على الأرض ثم يقوم ، ليستأنف سيره المترنح ، وهو ما بين ذلك يصيح : « الكارناتيك ! الكارناتيك ! »

ولما وصل إلى « الكارناتيك » كانت على وشك التحرك ، فما إن صعد إليها حتى انطرح على سطحها . فحمله البحارة ، الذين ألفوا هذه المشاهد من بعض المسافرين ، ووضعوه في إحدى حجر الدرجة الثانية . فظل نائماً حتى صباح اليوم التالي بعد أن أصبحت

السفينة على بعد خمسين ميلاً من الأراضي الصينية .
وقد انعشته أنسام الصباح الباردة ، فبدأ يستجمع
أفكاره ، لكن بجهد ، فذكر أحداث اليوم السابق ،
واعترافات فيكس .. قال في نفسه : « إذا كنت أنا
سفاحاً يكون السيد فوغ لصاً ! » ولكن هل ينبغي أن
يخبر سيده بأمر الشرطي أو ينتظر إلى حين عودتهما
إلى لندن ؟ .. المسألة تستحق التفكير والاهتمام ، ولكن
الأهم ، في البرهة الحاضرة ، هو العثور على سيده ،
والاعتذار إليه .

وراح يفتش عن سيده وعن السيدة آوودا في أنحاء
الباخرة ، فلم يعثر لهما على أثر . ولما سأل عن السيد
فيليس فوغ قيل له إنه لا يوجد شخص بهذا الاسم على
ظهر الباخرة ، وأروه قائمة الأسماء . فظن أنه أخطأ
السفينة ، فلما أكدوا له أنه على ظهر الكارناتيك ، أسقط
في يده وشعر كأن صاعقة سقطت على رأسه ..
وجلس يفكر فوضحت له صورة الأمس ، وذكر
أن موعد قيام الكارناتيك كان قد تغير ولم يخبر
سيده بذلك ، إذن فبسببه هو فات سيده أن يأخذ
مكانه هو والسيدة آوودا على ظهر الكارناتيك .

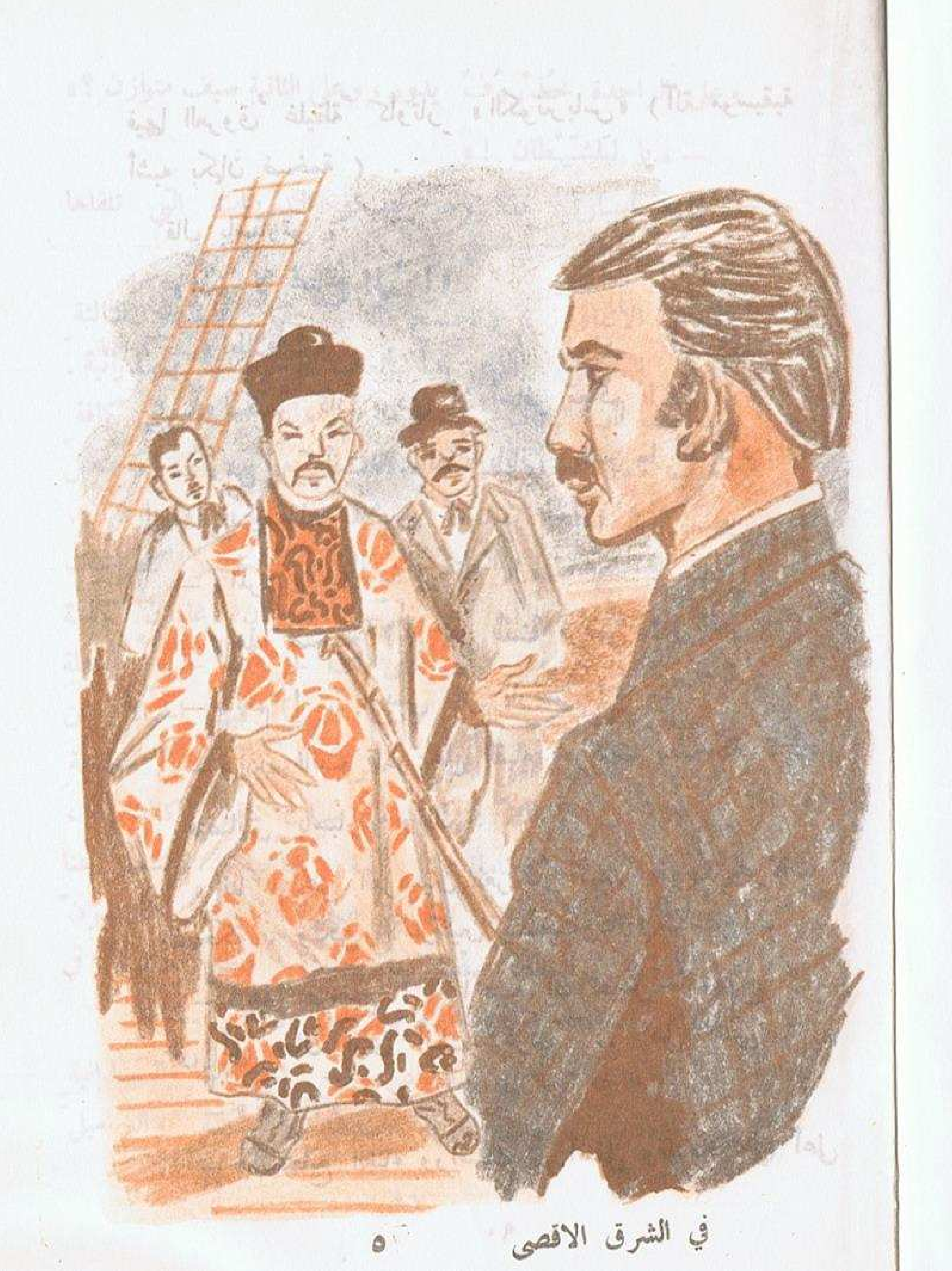
بعد الصدمة الأولى راح يفكر في وضعه : إنه
متجه نحو اليابان وليس في جيبه قرش واحد ..

فماذا يفعل ؟ .. على أي حال . أمامه ستة أيام
للتفكير .. أما الآن فإن تكاليف غذائه مدفوعة سلفاً .
ومن تلك اللحظة بدأ يأكل عن نفسه وعن السيد فوغ
والسيدة آوودا .

في الثالث عشر من الشهر وصلت السفينة إلى يوكوهاما
ذلك المرفأ النائم على المحيط الهادي ، فنزل باسبارتو
يطوف في المدينة الواسعة ، سائراً وراء الصدف ،
بين تلك الجموع المختلفة الأجناس والألسن . ظل
يطوف طول النهار فارغ المعدة ، فلما أقبل الليل
لجأ إلى المدينة القديمة .

٢٣ . باسبارتو المهرج

في اليوم التالي كان منهوك القوى ، من التعب والجوع ،
فكان أول همه أن يسكت جوعه . ساعة الأسرة ..
لا يمكن أن يبيعها ، حتى ولو مات جوعاً ! .. إنه
يعرف بعض الأغاني الفرنسية والانكليزية ، ولا بد
أن اليابانيين يتذوقون الغناء .. ولكن الوقت ما زال
مبكراً ! فلينتظر بعض الوقت ! .. وفي انتظار ذلك
بادل ملابسه الأوروبية المحترمة بثوب ياباني قديم ،
وأخذ الفرق قطعاً نقدية صغيرة ، حصل بها على



في الشرق الاقصى ٥

فطورٍ متواضع .

بعد هذا فكّر أن يتوجّه إلى إحدى السّفُنِ الأميركية ليَعرِضَ خدماتِهِ كطباخٍ أو كخادم . ولكنه عاد فتراجعَ عن هذا المشروع ، لأن ملابسَهُ لا ترغّبُ سفينةً أميركيّةً في استخدامه .

وبينا هُوَ كذلكَ وقعَ نظرُهُ على إعلانٍ يطوف به رجلٌ يرتدي زيَّ المهرّجين . كان الإعلانُ يحمل هذه الكلمات :

« فرقة ويليام باتولكار اليابانية للألعاب البهلوانية . الحفلة الأخيرة قبْلَ سفرِ الفرقةِ إلى الولاياتِ المتحدةِ الأميركية ! »

قال باسبارتو في نفسه : « هذا هو الذي يناسِبُني ! »

وتبع حاملَ الإعلان إلى أن وصَلَ إلى محلِّ العرْض ، فطلب مقابلةَ السيّد باتولكار ، الذي جاءَ بنفسِهِ ، وسألَهُ عمّا يُريد ، فقال باسبارتو :

« هل تحتاجُ إلى خادم ؟ »

— « خادم ؟ ! .. عندي خادمان في غايةِ الطاعةِ والإخلاصِ ! لقد لازماني طُولَ حياتي ، وَهما يؤدّيان جميعَ الخدمات بدونِ أجر . لقاءَ الغذاء فقط ! وها هما أمامك ! »

قالَ هذا وهو يمد ذراعيْهِ القويتين ، اللتين تظهر

فيها العروقُ غليظةً كأوتارِ «الكونترباس» (آلة موسيقية أشبه بكمان ضخمة).

قال باسبارتو:

«إذنْ لا تحتاجُ إليّ!»

– «اطلاقاً!»

– «لَكَمْ كان بودي أن أسافر معكم!»

– «من أينَ أنت؟.. أنت يابانيٌ بقدر ما أنا قرْد!.. لماذا ترتدي هذه الملابس؟»

– «المرء يرتدي ما يروقُهُ!»

– «هذا صحيح!.. هل أنتَ فرنسي؟»

– «نعم!.. باريسيٌ من باريس!»

– «إذن فأنت قادر على القيام بحركات مضحكة؟!»

فتضايقَ باسبارتو وقال:

«إننا، نحن الفرنسيينَ نعرفُ كيفَ نقومُ بحركاتٍ مضحكة، ولكن الأميركيين يَفْضُلونَنا في ذلك!»

– «هذا صحيح!.. أتحبُ أن تعملَ كمهرّج؟.. على أيّ حال أرى أنكَ قويٌ.. هل تغنّي؟»

– «نعم!»

– «أتستطيع الغناء ورأسُك في أسفل وقدماكَ في أعلى

وعلى الواحدة خُذْرُوفٌ يدور، وعلى الثانية سيف متوازن؟»

– «يا لَلشيْطان!»

قال باسبارتو هذا وهو يتذكر التدريبات التي تلقاها في صباه.

وتم الاتفاق. وتجمّع الناسُ قبلَ الساعة الثالثة لحضور العَرْض، الذي بدأ بألعاب وحركات بَهْلَوانية. والمعروفُ أن اليابانيين يتفوقون في هذا البابِ على كافة شعوبِ العالم. فقد أخذ أحد اللاعبين مِرْوَحَةً، وجَعَلَ يطيّرُ بها قِطَعاً صغيرةً من الورق بخفةٍ ومهارة، بحيث لا تقعُ منها واحدةٌ على الأرض، فتبدو كفَراشات تعلو وتهبطُ. وراح آخرُ يَرْسُمُ بدُخانِ غليونٍ كلمة ترحيبٍ بالزائرين. وقد أدى هذا حركات خفةً مذهلة بواسطة الخذاريف التي كانت تدبُ فيها الحياةُ بين يدَيْه، فتدور على غليونٍ مرّةً، ومرّةً على صفحة سيف، ومرّةً ثالثةً تنزلقُ على سلكٍ دقيقٍ كالشعرة، وتقوم بدوْرات كاملة على آنيةٍ زجاجية، وتبعثرُ هنا وهنالك محدثةً أنغاماً ترقيعية عجيبة. وكان اللاعبونَ يتقاذفونها بواسطةِ مضاربَ خشبية فتظلّ دائرةً في الفضاء وتتساقطُ هنا وهنا وهي تدورُ وتدور...

ولا حاجةَ بنا إلى تَعْدادِ جميعِ الحركاتِ البَهْلوانية التي قامَ بها رجالُ الفرقةِ مستخدمينَ السّلالم والبراميلَ

والكُرات ... ولكنَّ أمتعَ مشهد كان مشهدَ التوازنِ الذي عرَضه ذوو الأنوفِ الطويلة ، وهم مجموعةٌ من البهلوانات ، الذين يتزيّنَ بزيِّ أبطالِ القرون الوسطى ، ويحملون على ظهورهم زوجاً من الأجنحة ولهُم أنوفٌ طويلة ، هيَ عبارةٌ عن قصَبات فارسية طولُها خمسُ أقدام أو ستٌ أو عشرٌ ، وبعضها مستقيمٌ والبعضُ الآخرُ معقوف . وكانت هذه الأنوفُ مثبّتةً بقوة ، وهي التي كانت محورَ ألعابِ الخفّة والتوازن . فقد استلقى عددٌ من هؤلاءِ اللاعبينَ على الأرض وأنوفُهم في الفضاء ، وراحَ رفاقُهم يقفزون على تلكَ الأنوف ويؤدّونَ عليها حركاتٍ مُذهلة . بعْدَ هذا صعدَ البعْضُ على أنوف البعْضِ الآخرِ وشكّلوا هرَماً مرتفعاً . وراحَ المشاهدون يُصفّقون بحماسة بالغة ، بينما كانتِ الموسيقى ترتفعُ بشدّة . وفجأةً تهالكَ الهرَمُ البشريّ وانهارَ دونَ نظام . ذلك أن أحد الذين كانوا يؤلّفونَ قاعدةَ الهرمِ سَحَبَ نفسَهُ فجأةً ، فاختل التوازن وتساقطَ اللاعبونَ فوق بعضهم .. ولم يكن ذلك اللاعبُ سوى باسبارتو الذي قفزَ إلى مكانِ النظّارة وركعَ عند قدمي أحدهم وهو يصيح :

« سيّدي ! سيدي ! »

— « أهذا أنت ؟ »

— « أنا ، يا سيدي ! »

— « إذن هيا إلى السفينة ! »

وواضحٌ أن ذلك المُشاهدَ كان هو السيد فيليس فوغ ومعَهُ السيدة آوودا . وقد لاقاهُمْ على الباب السيّد باتولكار المحترم ، وهو في غاية الهياج ، لما لحقَ به من الخسارة . فما كان من السيد فوغ إلا أن سكّنَ غضَبَهُ بعددٍ من الأوراق المالية .

٢٤ . عبر المحيط الهادي

الذي حدَثَ في شانغهاي مفهومٌ طبعاً : فعندما أطلقت « التانكادير » إشاراتِ الاستغاثة ، غيّرت سفينة « يوكوهاما » اتجاهها ، وجاءت لنجدة السفينة الصغيرة فصعَدَ إليها فوغ والسيدة آوودا ومعها فيكس .

ومنذُ وصول فوغ إلى يوكوهاما في صباح الرابعَ عشرَ من الشهر ، ذهب هو والسيدة آوودا إلى السفينة « الكارناتيك » فسألَ عن باسبارتو ، فقيلَ له إن الشابَّ الفرنسيَّ كان فعلاً على ظهرِ الباخرة ، وقد نزل في يوكوهاما ، ومضى يفتش عنه إلى أن عثَرَ عليه في السيرك على نحو ما تقدم .

وروَت السيدة آوودا لباسبارتو كلَّ ما حدَثَ لهما ،

كما أخبرته بأنها اصطحبا معها شخصاً يُدعى فيكس . فلم يفاجأ باسبارتو ، ولكنه لم يقل شيئاً ، على أساس أن الوقت لم يحن بعد .

واستمع السيد فوغ بفتور إلى قصة باسبارتو دون أن يعلق بشيء ، ثم أعطاه ما يكفي لشراء ملابس لائقة .

كانت الباخرة التي تقوم بالرحلة من يوكوهاما إلى سان فرانسيسكو ، تدعى « جنرال غرانت » ، وهي سفينة واسعة مريحة ، تزن ألفين وخمسمئة طن ، وتمتاز بسرعة كبيرة . ولما كانت هذه السرعة تبلغ ١٢ ميلاً في الساعة فمعنى هذا أن السفينة تقطع المحيط في عشرين يوماً ، لا أكثر . وعلى هذا الأساس يصل فوغ في الثاني من كانون الأول إلى سان فرانسيسكو ، ويكون يوم ١١ منه في نيويورك ويوم ٢٠ في لندن ، أي قبل الحادي والعشرين وهو الموعد المحدد لانتهاء الرهان بيوم واحد .

كان عدد المسافرين كبيراً . وهم خليط من الانكليز والاميركيين ، خاصة ، والمهاجرين الصينيين والهنود ... ولم يقع أثناء الرحلة أي حادث بحري ، بحيث استحق « المحيط الهادي » اسمه تماماً . وظل السيد فوغ كما هو ، هادىء الطبع ، قليل الكلام . أما رفيقته فقد بدأت تحمل له شعوراً يفوق شعور الاعتراف

بالجميل ، إذ أنها كانت شديدة الإعجاب بتلك الشخصية السمحة الطيبة المستعدة دوماً للبذل دون تردد . وقد تحمست السيدة آوودا لرهان السيد فوغ ، وكانت تقلق لأي تأخير .

كذلك كانت تدور الأحاديث حوله بينها وبين باسبارتو الذي عرف كيف يقرأ في قلبها ذلك الميل الذي بدأ يقوى نحو سيده . وكان باسبارتو يكن للسيد فوغ أعمق عواطف الاحترام والمحبة ، ويطري على الدوام كرمه وشهامته وخلقه الكريم .

بعد ثمانية أيام من مغادرة السفينة « جنرال غرانت » ليوكوهاما ، أي في الثالث والعشرين من تشرين الثاني ، مرت في خط الطول المئة والثمانين ، بمعنى أن فوغ قد قطع نصف دائرة الأرض . صحيح أن هذه المرحلة قد استغرقت اثنين وخمسين يوماً ، ولم يبق من الثمانين يوماً سوى ثمانية وعشرين ، ولكنه قطع النصف الأصعب ، الذي يوازي ، في الحقيقة ، نحو ثلثي المسافة ، نظراً لصعوبة المواصلات في البلاد التي مر بها حتى الآن . أما الآن فقد أصبحت طريقه سهلة مستقيمة .

في ذلك اليوم كانت فرحة باسبارتو عظيمة إذ أن ساعته — وكانت الساعة التاسعة من الصباح — كانت متفقة مع الساعات الأخرى في تلك المنطقة . كان يضحك

في سرِّه ، ويقولُ إنه كان متأكداً من أن ساعتَهُ لا تخطئ ، ولا بُدَّ أن الشمسَ ستنضبط عليها يوماً من الأيام ، وها قد جاء ذلك اليوم ! غير أنه فات باسبارتو أن ساعتَهُ مقسّمَةٌ إلى اثني عشر جزءاً ولو كانتْ مقسّمَةً إلى أربعة وعشرين ، كالساعات الايطالية ، لسجلتِ التاسعةَ مساءً بَدَلَ التاسعة صباحاً ، وهو الفرقُ في المسافة بين لندن والنقطةِ المقابلةِ على الكرة ، أي على خطِّ الطول ١٨٠ .

ولو كان فيكس أمامَ باسبارتو في تلك اللحظة ، لتشفّى منه ، وأراهُ ساعتَهُ الدقيقةَ ، وبيّنَ له سخافتَهُ ! .. ولكن أين يوجدُ فيكس هذا في ذلك الوقت ؟ .. لقد كان بالفعل على ظهر السفينةِ نفسِها . فالذي حدثَ أنه ، عندما تركَ فيليَس فوغ ، في يوكوهاما ذهب توّاً إلى القنصلية البريطانية حيث وجد أخيراً مذكّرة التوقيفِ التي طالما انتظرَها ، والتي كانت تتبعُهُ من مكان إلى مكان . وكان تاريخها يرجعُ إلى أربعينَ يوماً قبلَ ذلك . وقد أرسِلت اليه من هونغ كونغ مع السفينة « الكارناتيك » التي كان من المفروض أن يكونَ على ظهرها . ولقد أصيبَ بخيبة أملٍ مريرة إذ تسلّم المذكّرةَ بعد أن خرجَ المتهمُ من دائرة النفوذ البريطاني ، فلم يَعُدْ لها من فائدة . ولكن فيكس أخذ يفكر في

الأمر ، بعد زوال الصدمة الأولى ، ويقول :

« حسناً ! هذه المذكرةُ لا تفيدُ هنا ، ولكنها ستستعيدُ قيمتَها في انكلترا ، ويبدو أن هذا اللصَّ عازمٌ على الرجوع إلى الوطن ، بعد أن اطمأنَّ إلى أنه نجح في تضليل البوليس . ولهذا فسأتبعُهُ إلى هناك ! »

بعد أن اتخذ هذا القرارَ ركبَ في الحال الباخرةَ « جنرال غرانت » ، وكان على ظهرها عندما أتى السيد فوغ والسيدة آوودا وباسبارتو . وسُرعانَ ما أوى إلى حُجرته حتى يتفادى الالتقاء مع أيٍّ منهما . وكان يعتقدُ أنَّ كثرةَ المسافرينَ ستمكنه من الاستخفاء إلى آخر الرحلة . ولكنّهُ التقى باسبارتو صُدفةً على الظهر . فما كان من الشابِّ الفرنسيِّ إلا أن هجَمَ عليه وراح يكيلُ لــه اللّكمات ، فيما كان الركابُ الأميركيونَ يضحكونَ فرِحينَ بتفوّق الفرنسي على الانكليزي .

ولما شفى باسبارتو غليلَهُ ، بدا وكأنّهُ قد أراحَ نفسَهُ من عبءٍ كان يُرْهِقُها . فنهضَ المفتشُ الانكليزي عن الأرض وهو في أسوإ حالٍ ، وقال للشاب بجفاء :

« هل انتهيْتَ ؟ »

— « الآن .. نعم ! »

— « تعال نتحدث إذن ! »

— « أنا أحادثُك ؟ ! »

— « ذاك في مصلحة سيّدِك ! »

ويبدو أن الرزانةَ التي تكلّمَ بها فيكس قد أثّرت في باسبارتو، فتبعَهُ إلى مقدّم السفينةِ حيثُ جلسا . وبدأ المفتشُ الحديثَ قائلاً :

« لقد ضربْتَني بما فيهَ الكفاية .. وقد كنتُ أنتظرُ ذلك .. والآن استمعْ إليّ . حتى الآن كنتُ ضدّ سيّدك ولكنني الآنَ معه ! »

— « هل آمنتَ أخيراً ببراءته واستقامتهِ ؟ ! »

— « كلا ! بل ما زلتُ أعتقدُ أنه لصّ ! .. اسكتْ .. لا تتركْ مكانك .. استمِعْ إليّ حتى النهاية .. كان من مصلحتي . والسيد فوغ ما زال ضمنَ الممتلكات البريطانية، أن أعيقَ تحرّكَهُ ريثما تصلُ إلى يدي مذكرةُ التوقيف .. فقد استخدمتُ جميعَ الطّرقِ لتعطيلِ رحلته: أنا الذي أطلقتُ الكهنةَ الهنودَ وراءه في بومباي ، وخدّرْتُكَ في هونغ كونغ وفصلتُكَ عن سيّدك ، وفوّتُّ عليه ركوبَ سفينة يوكوهاما .. أما الآن فإن السيد فوغ يريدُ أن يعودَ إلى انكلترا ، كما يبدو ، وسأتبعُهُ إلى هناك . ولهذا فقد أصبح من مصلحتي تسهيل عودتِهِ وإزالة العقباتِ من طريقِهِ كيما يعودَ

سريعاً إلى هناك .. إن مصلحتَكَ مشابهةٌ لمصلحتي ، ففي انكلترا سيتأكدُ لك إن كنتَ تخدمُ إنساناً شريفاً أو كنتَ في خدمةِ لصٍّ مجرم ! »

كان باسبارتو يستمعُ إلى فيكس بانتباهٍ ، شاعراً أنه يتكلم بإخلاصٍ . فقال له فيكس :

« هل أصبحْنا صديقين ؟ »

— « صديقَيْن ؟ ! .. لا ! ولكن .. حليفَيْن .. نعم ! وعلى شرط ! فلو بدَرَتْ منكَ أيُّ بادرةِ خيانة فسأقطع عُنُقَكَ ! »

— « اتفقنا ! »

بعد أحدَ عشَرَ يوماً ، أي في الثالثِ من كانونَ الأولِ وصلتِ الباخرةُ إلى سان فرانسيسكو .

٢٥ . في سان فرانسيسكو

كانت الساعةُ السابعةُ من الصباح عندما خطا فيليَس فوغ والسيدة آوودا وباسبارتو على الأرض الأمريكية . لقد هبطوا على رصيف متحرّك ، ولما كان باسبارتو شديدَ الفرح بالوصول إلى القارّة الأمريكية ، فقد عبّر عن فرحتِهِ بقفزةٍ خطيرةٍ كادَ معها يفقدُ توازنه

ويسقطُ في البحر ، فزعقَ زعقةً أطارتْ رفاً من الطيورِ البحرية ، التي تلازمُ الأرصفةَ المتحركةَ في العادة .

ومنذ أن وضعَ السيد فيليس قدَمَهُ على الأرض سأل عن موعدِ أولِ قطارٍ متوجهٍ إلى نيويورك ، فقيلَ له إنه يقومُ في السادسةِ مساءً . إذن فأمامَهُ النهارُ بطولِه في العاصمةِ الكاليفورنيّة (نسبة إلى كاليفورنيا) . هنالك استأجرَ عربةً حملتهم إلى فندق « انترناسيونال » .

وكانَ باسبارتو ، من مجلسِه بجانب الحوذي ، يتابعُ ، باهتمامٍ بالغٍ ، ما يمرّ به من مشاهدَ في تلك المدينة الأميركيةِ العظيمة ، من شوارعَ عريضةٍ ، ومنازلَ منسّقة قليلة الارتفاع ، وكنائسَ ومعابدَ مبنية على الطريقة الانكلوسكسونية في معالجة الفن القوطيّ ، وأرصفة شاسعة ، ومستودعات عملاقة ، بعضُها خشبيٌّ والبعضُ الآخرُ من الطوب . وكانت الشوارعُ مزدحمةً بالعربات ، وحافلات الترام « والأمنيبوس » والكارّات . أما على أفاريز الشوارعِ فكان يتزاحمُ العديدُ من المارّة ، من اميركيينَ وأوروبيينَ وصينيين وهنود و ..

لقد دُهِشَ الشابُ الفرنسيُ مما كان يرى ، لأنه كان يتصوّرُ سان فرانسيسكو بشكلِها الأسطوريّ عام ١٨٤٩ ، حيث كانت مدينةً للّصوص وقُطّاع الطرقِ

والقتلَة ومُشعلي الحرائق ، ولأولئك الذين جاؤوا يفتشون عن الذهب وهم يحملونَ مسدساً بيدٍ وخنجراً باليد الأخرى . ولكنَّ ذلك « العصرَ الذهبيَّ » قد مضى وانقضى . وأصبحتْ سان فرانسيسكو مدينةً تجاريةً عظيمة .

عندما وصلَ باسبارتو إلى فندق انترناسيونال خُيّل اليه أنه لم يخرجْ من لندن . كان في الطابق الأرضي مَقْصَفٌ رَحْبٌ يأكلُ فيه مجّاناً كلُّ عابر . وفيه كانتْ تقدّمُ اللحومُ المقدّدةُ وشوربةُ المَحار والجُبْن والبسكوت دون أن يُضطرَّ الطاعمُ إلى حلّ كيسه . المشروباتُ فقط هي التي يُدفعُ ثمنُها .

أما المطعمُ فقد كان واسعاً مُريحاً ، يقومُ بالخدمة على موائده زنوجٌ ذوو بَشَرةٍ لماعة رائعة .

بعد تناوُل الطعام غادرَ السيد فوغ والسيدة آوودا الفندقَ ، متوجّهَيْن إلى القنصليةِ البريطانية ، ليختمَ فيليس جوازَ سفرِه . وعلى رصيف الشارعِ قابلَ فوغ خادمَهُ باسبارتو الذي اقترحَ شراء عدد من بنادق « انفيلد » ومسدسات « غولد » ، قبل ركوب القطّار ، لأنه سمعَ أن بعضَ الهنودِ يهاجمونَ القطاراتِ لسَلْب الركاب . فأجابه فيليس بأنّ مثلَ هذا الاحتياط غيرُ ضروريّ ، ولكنه تركَ له الخيارَ ليفعلَ ما يشاء . ثم تركَهُ وتوجّهَ إلى دارِ القنصل .

ولم يسِرْ فوغ مئتي خطوةٍ حتى صادفَ مفتشَ البوليس فيكس الذي أبدى دَهشَتَهُ الشديدَ إذ أنه قطَع والسيد فوغ المحيط الهادي على نفس الباخرة دون أن يلتقيا . ولكنه أعربَ عن بالغِ سرورهِ لرؤية السيد فوغ ، ولما كانتْ أعمالُهُ تدعوه إلى السفرِ إلى أوربا فإنه ليشرّفُه أن يكونَ في صحبته خلالَ الرحلة . فأجابه فيليس بأنه يتشرّفُ بصحبته . وعرَضَ عليه فيكس أن يتجوّلا معاً في سان فرانسيسكو — لأنه كان يريدُ أن يظلّ تحت رقابتهِ — فرحّبَ فيليس بمرافقته .

وهكذا سارَ الثلاثةُ معاً ، وزاروا شارعَ « مونتغومري » المزدحمَ بالسّابلة ، الذينَ كان يروحُ ويغدو بينهم « الرجال — الاعلانات » وقد رأوا تجمعاتٍ صاخبةً ترفع الأعلام وتطلق الهتافات :

« هورّا لكامرفيلد ! »

« هورّا لمانديبوي ! »

كان ذلك لقاءً حسب رأي فيكس الذي أضاف قائلاً :

« يحسن بنا أن نبتعدَ عن هذا الجمهور ، إذ قد تصيبنا بعضُ الضّربات ! » فاستصوبَ فوغ هذا الرأيَ ، وصعدوا جميعاً إلى أعلى دَرَجٍ يؤدّي إلى شُرفةٍ مُطلّةٍ على الشارع . وكان في الناحيةِ المقابلةِ لهم مكتبٌ كان

الجمهورُ يتّجهُ إليه .

ما الذي كان يحدُثُ بالضبط ؟ ولأيّ غرضٍ كان هذا التجمع ؟ من الحماسة البادية في مختلف أنحاء المدينة يغلبُ على الظن أن اللقاء كان لقاءً انتخابياً . وفجأة بدأ الضربُ والصياحُ وتمزقتِ الرايات . وقد استخدمَتْ عِصيُّ الأعلام كأسلحة ، والأحذيةُ والزجاجات كقذائف ، بل انطلقتْ بعضُ الرّصاصاتِ بين الصياحِ المدوّي والشتائمِ المُقذِعة . ووصلتِ الكتلةُ الموّارة الصاخبةُ إلى تحت الشرفة ، وصعدَ البعضُ على الدرجات الأولى ، ولكنْ لم يُعرَفْ من هو الفريقُ المتفوّق : أجماعة مانديبوي أم جماعة كامرفيلد .

قال فيكس :

« أرى أن من الحكمةِ أن ننسحب ، فإذا كانت المسألةُ متعلقةً بانكلترا وعرَفوا أننا بريطانيانِ ، فلن نخرجَ بسلام ! »

ولم يجدْ فوغ وقتاً للردّ . فقد جاءت مجموعةٌ جديدة من أنصار مانديبوي ، من خلفِ الشّرفة كمدَدٍ ، وهي تطلقُ هتافاتٍ تُصِمّ الآذانَ : « هيب ، هيب ، هورّا لمانديبوي ! »

وأصبح فيليس ورفيقاه بين نارَيْن ، ولم يَعُدْ في

إمكانهم أن يخرجوا من وسط ذلك السيل من الرجال المسلحين بعصيّ مثقلة بالرصاص وهراوات غليظة.

وأرادت السيدة آوودا أن تدافع عن نفسها، فانقض شابٌ عريض الأكتاف متين البنيان. يبدو أنه زعيم المجموعة، فسدد لكمةً من قبضته الحديدية إلى فوغ، ولكنّ فيكس توسط بينهما، فتلقى الضربة مكانه.

وسرعان ما برز نتوءٌ في رأس الشرطي تحت القبعة التي تحولت إلى «طاقية»، فقذف فوغ المهاجم بنظرة احتقار وقال:

«يا لك من أميركي ... !»

فأجابه الرجل:

«يا لك من انكليزي ... !»

— «سنلتقي!»

— «متى تشاء! .. ما اسمك؟»

— «فيليس فوغ! .. وأنت؟»

— «العقيد ستامب بروكتور!»

بعد هذا تحول المد، ونهض فيكس وقد أصيب ببعض الكدمات، وتمزقت ملابسه. ولكن السيدة آوودا لم تصب بأذى. ولما أصبحوا خارج الزحام، قال فوغ لمفتش البوليس:

«شكراً لك، يا سيد فيكس!»

— «لا شكر على واجب! .. هيّا بنا!»

— «إلى أين؟»

— «إلى أحد حوانيت الملابس الجاهزة!»

الواقع أن الاثنين كانا يحتاجان إلى ملابس، لأن فوغ، هو أيضاً، قد تمزقت ملابسه، حتى لكأن كليهما اشتركا في المعركة الانتخابية.

بعد ذلك توجهوا إلى الفندق حيث كان ينتظرهم باسبارتو الذي اشترى «دزينة» من المسدسات ذات العشر رصاصات. ولما رأى فيكس في صحبة سيده اكفهر وجهه.

وبعد تناول العشاء جاءت عربةٌ لتحملهم ومتاعهم إلى محطة القطار. وفيما كانوا يركبون العربة، قال فوغ لفيكس:

«ألم تر ذاك العقيد الأميركي ثانية؟»

— «كلا!»

— «سأعود إلى أميركا لأبارزه! فلا ينبغي لمواطن انكليزي أن يعامل بهذا الشكل!»

فابتسم فيكس ولم يجب.

٢٦ . على خط الباسفيك الحديدي

« أوشن تو أوشن » — أي من المحيط إلى المحيط — تلك هي التسمية التي يطلقها الأميركيون على الخط الحديدي الكبير الذي يجتاز الولايات المتحدة الأميركية عرضاً . الحقيقة أن « خط الباسفيك الحديدي » ، ينقسم إلى قسمين متمايزين :

« الباسفيك الأوسط » ، ويصل بين سان فرانسيسكو وأوغدن ، و « باسفيك الاتحاد » ، ويربط بين أوغدن و « أوماها » الموصولة بنيويورك . إذن فسان فرانسيسكو ونيويورك موصولتان بشريط حديدي غير منقطع لا يقل طوله عن ثلاثة آلاف وسبعمئة وستة وثمانين ميلاً . بين أوماها والمحيط الهادي يجتاز الخط الحديدي منطقة ما زالت آهلة بالحيوانات المفترسة ، وتسكنها بعض القبائل الهندية .

في الماضي كان المسافرون يقضون — في أفضل الظروف — ستة أشهر لقطع المسافة بين نيويورك وسان فرانسيسكو . أما الآن فتقطع هذه المسافة في سبعة أيام .

وعلى طول طريق هذا الخط العظيم تتفرع منه

خطوط في ولايات « إيووا » و « كانساس » و « كولورادو » و « اوريغون » . وهو ، عندما يخرج من « أوماها » ، يسير بمحاذاة الضفة اليسرى لنهر « بلات » حتى مصب الفرع الشمالي من هذا النهر ، ثم يتبع الفرع الجنوبي فيجتاز أراضي « لارامي » وجبال « واهساتش » ، ويلف حول « البحيرة المالحة » ، فيصل إلى مدينة « ليك سولت سيتي » ، ثم ينحدر في وادي « لاتويلا » ، ويجتاز الصحراء الأميركية وجبال « سيدار » و « همبولت » و « همبولت ريفر » و « السييرا — نيفادا » ، ومن ثم ينحدر نحو المحيط الهادي عن طريق « سكرامنتو » ، وذلك دون أن يتجاوز الانحدار مئة واثنتي عشرة قدماً في الميل الواحد ، حتى في « الجبال الصخرية » .

ذلك هو الخط الذي سيتيح لصاحبنا فيليس فوغ المحترم — كما يأمل هو بالطبع — أن يبحر من نيويورك إلى بريطانيا ، يوم ١١ من الشهر على ظهر الباخرة « ليفربول » .

كانت عربة القطار ، التي جلس فيها فيليس ، عبارة عن « اومنيبوس » فيه صفان من المقاعد ، عن يمين وعن يسار ، بينهما ممر يؤدي إلى المراحيض ، التي زودت بها كل حافلة . وكانت تصل بين العربات ممرات ، بحيث يستطيع المسافرون أن يجتازوا القطار

من طَرَفٍ إلى آخرَ . فيذهبوا إلى العربات ـ الصالونات » والعربات ـ المطاعم » وغيرها . وكان يروحُ ويَغدو في هذهِ الممرات . بائعو الكتبِ والصحفِ والمأكولاتِ والمشروباتِ و « السيجار » وغيرِها من السلع .

تحرّكَ القطارُ في السادسةِ من المساء . وقد جاء الليل . وكان ليلاً فاحمَ السواد ، شديدَ البرودة ، تُنذِرُ غيومُهُ بالتساقطِ ثلجاً . ولم يكنِ القطارُ مُسْرِعاً في سَيْرِه . إذ لم تتعدَّ سرعتُه العشرينَ ميلاً في الساعة . وكانتِ الأحاديثُ قليلةً في العربات . وقد جلسَ باسبارتو بجانبِ مفتشِ البوليس . ولكنّهُ لمْ يكُنْ يُوجّهُ إليه حديثاً . فمنذُ الأحداثِ الأخيرةِ فترتِ العلاقةُ بين الاثنين .

بعدَ ساعة من قيام القطار بدأ الثلجُ يتساقط ، ولكنه كان من الدقّة بحيثُ لم يعقْ مسيرَ القطار . وفي الساعةِ الثامنة دخل إلى العربة مُشْرِفٌ قال إنّ ساعةَ النوم قد أزفَتْ . وكانتْ هذه العربةُ للمنامة ، فمساندُ مقاعدِها تُقلَبُ ويتحوّلُ المَقعدُ إلى سرير تُنصَبُ حولَهُ ستارةٌ تحجُبُ النائمَ عن عيونِ المسافرين . وقد وُضِعتِ الأغطيةُ والوسائدُ البيضاءُ النظيفةُ في هذه الحُجَرِ الصغيرة . وأصبح في إمكانِ كلِّ واحدٍ أن يخلُدَ إلى النوم .

في منتصفِ الليلِ مرَّ القطارُ في مدينة « سكرامنتو » الكبيرةِ التي لم يرَ المسافرونَ منها شيئاً ، لأنهم كانوا نائمين . وفي السابعة صباحاً اجتازَ محطةَ سيسكو . وبعدَ ساعة تحوّلتْ عربةُ المنامة إلى عربةِ رُكّاب ، واستطاعَ المسافرونَ أن يُشاهدوا تلكَ المنطقةَ الجبليةَ الرائعة ، وكان القطارُ يُطاوِعُ نتوءات جبال « السيرا نيفادا » . وفي نحوِ التاسعةِ دخل القطارُ ولاية نيفادا عبرَ وادي « كارسون » . وعند الظهرِ غادرَ محطةَ « رينو » ، التي توقفَ فيها عشرينَ دقيقةً تناولَ أثناءها الركابُ غداءَهم .

بعد الغداء راحَ فوغ والسيدة آوودا وباسبارتو ينظرونَ إلى المراعي الشاسعة . حيث كانت ترى قُطْعانُ « البيسونات » (جمع بيسون وهو ثور أميركي له شِبْهُ سَنام عند رقبتِهِ) كحواجزَ متحركةٍ . وكانتْ هذه القطعانُ كثيراً ما تسيرُ في صفوفٍ متراصّة على السكة الحديدية فتضْطرُّ القطاراتُ إلى السير ببطءٍ أو التوقّف تماماً حتى يَحْلوَ لهذه الحيوانات أن تجلوَ عن طريقها . وهذا ما حدثَ بالفعل للقطار . الذي يركبُه فيليس فوغ وصَحْبُه في تلك المنطقة . فقد جاء قطيعٌ يتراوحُ عددُهُ بين عشرةِ آلاف واثني عشرَ ألفَ رأس وقطعَ طريقَ القطار ، الذي خفّفَ سرعته . محاولاً أن يدفعَ القطيعَ عن خطّه ، ولكنّهُ اضطرُّ أخيراً إلى الوقوف ، وتركَ

ذلك القطيعَ من الحيوانات المجترة التي يدعوها الأميركيون، خطأً، «بوفالوز» أي جواميس. تركَه يسيرُ بتكاسل. ووقفَ الركابُ ينظرون إلى ذلك المَشْهد الغريب، فيما عدا فيليس فوغ الذي ظلّ في مكانه، منتظراً بهدوء ساعةَ الجلاء، بينما كان باسبارتو يتميّز غيظاً لهذا التأخير المفاجيء.

وقد استغرقتْ مسيرةُ البقر ثلاثَ ساعات طويلة، ولم يتسنّ للقطار أن يعاودَ السيرَ إلا عند هبوطِ الظلام. وفي التاسعةِ والنصفِ مساءً كان يدخلُ منطقةَ «البحيرة المالحة».

٢٧. على ضفاف البحيرة المالحة

في ليل ٥ – ٦ كانون الأول سار القطارُ نحو خمسين ميلاً نحو الجنوب الشرقيّ، ثم صعدَ مثلَها في اتجاه الشمالِ الشرقيّ مقترباً من «البحيرة المالحة الكبرى».

وحوالى التاسعةِ صباحاً وقف باسبارتو عند الممرّ بين العربتَين ليستنشقَ الهواء. كان الجوّ بارداً، والسماءُ غائمة، ولكنْ لم يكنِ الثلجُ يتساقط. وبينا هو كذلك بَصُرَ بشخص غريب الشكل كان قد صعد إلى القطار في محطة «إلكو». كان هذا الرجلُ فارعَ الطولِ،

شديد السّمرةِ له شاربانِ فاحمانِ، ويرتدي السوادَ من رأسِه حتى القدمِ، فيما عدا رباط عُنُقِه الذي كان أبيضَ، وكان يغطّي يدَيْه بقفّازَيْنِ من جِلْدِ الكلاب.

كان الرجلُ، الذي يبدو كالقُسُس، يجتازُ القطارَ، ويُلْصِقُ على بابِ كلّ عَرَبة لافتةً مكتوبةً باليد. فاقتربَ باسبارتو من إحدى هذهِ اللافتاتِ فإذا فيها «إن المحترم «ويليام هيتش»، المبشّر المورموني. يغتنم فرصةَ وجودِه في القطار رقم ٤٨، فيلقي محاضرةً في موضوع المورمونية[1] ما بين الساعةِ الحاديةَ عشرةَ والثانيةَ عشرةَ، وذلك في الحافلة رقم ١١٧، ويدعو إلى سَماعها جميعَ السادةِ المهتمينَ بالاطّلاع على أسرارِ الديانة عند «قدّيسي الأيام الأخيرة».

وما هي سوى لحظات حتى انتشرَ الخبر بين رُكاب القطار، الذين يَبْلُغُ عددُهم نحو المئة، ولكنّ المحاضرة لم تجذِبْ غيرَ ثلاثينَ شخصاً توجّهوا في الحاديةَ عشرةَ لاحتلال المقاعد في العَرَبة رقم ١١٧، وكان باسبارتو يجلسُ في الصفّ الأوّل، ولكنْ لم يَحْضُرْ لا سيّدُه

(١) المورمونية: طائفة دينية أميركية أنشأها جوزيف سميث عام ١٨٣٠؛ وقد أباحت تعدد الزوجات.

ولا المفتشُ فيكس .

وفي الوقت المحدّد نهَضَ المحترم ويليام هيتش ، وبدأ حديثَهُ بصوتٍ محتدّ ، كأنه يفترضُ سلفاً أن المستمعين يعارضونه ، فصاح :

« أنا أقول لكم إن جو سميث شهيدٌ ، وإن أخاه حيرام شهيدٌ أيضاً ، وإن الاضطهادَ الذي تمارسُهُ حكومةُ الاتحاد ضد الرُّسُلِ سيجعلُ من « بريغهام يونغ » شهيداً جديداً ! .. مَنْذا الذي يجترىء على معارضة هذا الكلام ؟ »

فلم يجازفْ أحدٌ بمعارضة المبشّر ، الذي كانتْ حماستُهُ الزائدةُ متناقضةً مع مظهرِه الهادىء . والواقعُ أن هناك ما يبرّرُ غضبَهُ ، إذ أنّ حكومةَ الولايات المتحدةِ قد هاجمت هؤلاء المتعصّبين في معقلِهم « بأوتاه » ، واخضعتْهُم بالقوة ، بعد أن اعتقلتْ بريغهام يونغ ، ووجّهتْ إليه تهمةَ التمردِ وتعدّد الزوجات . ومنذ ذلكَ الوقتَ أخذ تلاميذُ ذلك « الرسول » يضاعفونَ نشاطَهُم الدّعائيَّ ، وهذا ما يفسّرُ وجودَ ويليام هيتش في القطارِ لإلقاء محاضرةٍ على المسافرين .

وراح المحترمُ ويليام يتحدثُ عن تاريخ الحركة ، مستعيناً بالصّراخ والإشاراتِ لجذْب انتباهِ المستمعين ، فروى « أن نبياً يهودياً » من قبيلة يوسف نشر الديانةَ

الجديدة ، وخلّف هذا الكتاب لابنه « موروم » . وبعد عدّةِ قرون ظهرت ترجمةٌ للكتاب النفيس ، مكتوبة بالحروفَ المصرية ، وضعها جوزيف سميث الأصغر ، المزارع بولاية « فرمونت » ، والذي تكشّف عن رسول روحاني عام ١٨٢٥ . وقد هبط عليه ملَكٌ من السماء ، في غابة مضيئة وسلّمَهُ كتاب الإله . »

في هذه اللحظة ترك عددٌ من المسافرينَ العربةَ ، لأن تلك الدراسةَ التاريخيةَ لم تُثِرِ الاهتمام . ولكن المبشر لم يتوقّفْ عن الكلام ، بل ظلّ يروي كيف جمع جوزيف سميث حولَهُ أباه وإخوته وبعضَ التلاميذ وأسّس طائفة القدّيسين المتأخرين ، التي لم تجِدْ لها أتباعاً في أميركا وحسْبُ ، بل وكذلك في بريطانيا واسكنديناڤيا وألمانيا ...

هذه القصةُ الطويلةُ بثّتِ الملَلَ في صفوف المستمعين ، فبدأت المقاعدُ تفرغُ شيئاً فشيئاً ، ولم يبْقَ إلا نحو عشرين شخصاً . ولكنّ هذا لم يقلّلْ من حماسةِ الخطيب الجليل ، فتابع حديثَهُ مبيناً كيف أن « النبي » جوزيف سميث ، الذي أصبحَ صاحبَ مصرف ، أفلس عام ١٨٣٧ ، فسوّأ أصحابُ الأسهمِ سُمعتَهُ ، ولكنّهُ ما لبثَ أن ظهرَ مكرّماً معظماً في « اندباندنس » و « ميسوري » ، كرئيس لطائفة تعدُّ ثلاثةَ آلافَ من الأتباع والمُريدين ، على أقلِّ تقدير . إلا أنّ الحاقدين

لم يتركوه ، فلجأ إلى الغرب .

وهبط عدد المستمعين إلى عشرة بينهم الشاب الطيب باسبارتو . وظل الخطيب يروي كيف أن « جو سميث » عاد فظهر في « إيلينوي » ، وكيف أنشأ مدينة على المسيسبي ، ارتفع عدد سكانها إلى خمسة وعشرين الف نسمة ، وكيف استدرج بعد ذلك إلى كمين ، ثم ألقي به في السجن حيث قتله أشخاص ملثمون .

هنا كان باسبارتو وحده أمام الخطيب العنيد ، الذي كان يتحدث إليه مباشرة ، دون أن يحول نظره عنه . فروى له قصة خليفة سميث الذي هجر مدينة « نوفو » ، وأنشأ مستعمرة جديدة على « البحيرة المالحة » ، وبعد أن صب جام غضبه على الدولة التي طاردتهم من مكان إلى مكان ، وجه الخطاب إلى المستمع الوحيد قائلاً : « وأنت ، أيها المؤمن ، هل أنت مستعد لأن تنصب خيمتك في ظل علمنا ؟ »

فأجاب باسبارتو بجرأة : « كلا ! » ، ثم لاذ بالفرار .

في أثناء هذه المحاضرة ، قطع القطار مسافة طويلة ، فأشرف في الثانية عشرة والنصف ، على الزاوية الشمالية الغربية للبحيرة المالحة ، التي يبلغ طولها نحو سبعين ميلاً ، وعرضها نحو خمسة وثلاثين ، وترتفع عن

سطح البحر ثلاثة آلاف وثمانمئة قدم .

في هذه البحيرة ترتفع درجة الملوحة إلى حد كبير ، فهي تشتمل على ربع وزنها من المادة الصلبة الذائبة في مياهها ، لهذا لا تستطيع الأسماك أن تعيش فيها ، والسمك الذي تلقيه فيها أنهر « ويبر » و « الأردن » ، والجداول الأخرى لا يلبث أن يموت . أما الأراضي التي تمتد حولها فهي حقول منتجة رائعة ، ولكنها كانت مغطاة ، في تلك الفترة ، بطبقة من الثلج .

في الساعة الثانية توقف القطار في محطة « أوغدن » ، التي كان سيمكث فيها حتى الساعة السادسة . إذن فقد كان أمام فوغ ورفاقه الوقت الكافي لزيارة مدينة « القديسين » ، التي يحيط بها سور من الطين والحصى بني عام ١٨٥٣ .

لم يجدوا في المدينة كثيراً من السكان ، فقد كانت شوارعها شبه خاوية ، إلا في الجزء الذي يقوم فيه المعبد ، والذي لم يصلوا إليه إلا بعد اجتياز عدة أحياء مسورة . كان عدد النساء كثيراً ، وهذا شيء مفهوم بالنسبة إلى النظام الذي تقوم عليه الأسرة المورمونية . ولم تكن تبدو على أولئك النسوة لا السعادة ولا السعة .

أما باسبارتو فقد نظر بشيء من الرهبة إلى هؤلاء النساء

المورمونيات اللواتي يجب أن يتكفّل عددٌ منهن باسعاد مورمونيّ واحد. الواقع أنه كان، بينه وبين نفسه، يعطف على الرجل!

وحوالى الساعة الرابعة عاد الجميع إلى المحطة، واتخذوا أماكنهم داخل القطار.

٢٨ . اشارة الخطر

حين ترك القطار محطة أوغدن صعد نحو الشمال مدة ساعة من الزمن، حتى نهر «فيبر»، ومن هذه النقطة عاد يتجه شرقاً في منطقة جبلية وعرة.

في الساعة العاشرة ليلاً توقف القطار قليلاً في محطة «فورت — بريدجر»، ثم سار نحو عشرين ميلاً، ودخل ولاية «وايومنغ» — داكوتا سابقاً — وقطع وادي «بيتر — كريك»، الذي تغذي مياهه «كولورادو» بالقوة الكهربائية. في اليوم التالي، أي السابع من كانون الأول توقف القطار أيضاً ربع ساعة في محطة «غرين ريفر». لقد تساقط الثلج بكثرة في أثناء الليل، ولكنه كان مختلطاً بالأمطار، فما كان ليعيق سير القطار. ومع ذلك فقد تضايق باسبارتو من رداءة الطقس، وقال في نفسه: «ما الذي حمل سيدي

على السفر في هذا الفصل؟.. أما كان يستطيع أن ينتظر مقدم الربيع ليزيد فرص نجاحه؟!

ولكن، في نفس تلك اللحظة التي كان فيها الشاب الطيب مشغولاً بالتفكير في أحوال الجو وانخفاض الحرارة، كانت تساور السيدة آوودا مخاوف جدية من نوع آخر، ولسبب مختلف تمام الاختلاف عن السبب الذي كان يقلقه. ذلك أن مجموعة من الركاب نزلت من القطار، وراحت تتمشى في المحطة انتظاراً لتحركه. فعرفت السيدة آوودا، بين تلك الجماعة، العقيد بروكتور، ذلك الأمركي الذي عامل السيد فوغ معاملة فظة وحشية أثناء التظاهرة الانتخابية في سان فرانسيسكو. فارتدت السيدة آوودا عن النافذة حتى لا يراها العقيد، وتملكها خوف على فوغ وتوجس من هذا اللقاء المفاجىء. فلقد باتت متعلقة بذلك الانكليزي، الذي مع برودته المذهلة، يقدم إليها في كل لحظة برهاناً جديداً على شهامة وكرم ليس لهما حدود. على أنها لم تدرك بعد عمق تلك العاطفة التي تحملها لمنقذها، ولا تعرف لها اسماً سوى الاعتراف بالجميل، وإن كانت بالفعل، ودون شعور منها، قد فاقت مرتبة الاعتراف بالفضل والجميل. فما العمل الآن؟ إنها تعرف أن السيد فوغ لا بد أن يبارز هذا الرجل

الفظّ إن عاجلاً أو آجلاً .. وها هي الصُدْفَةُ تَضَعُهُ في طريقه . إذن ينبغي أن تحولَ ، هي السيدةُ آوودا ، دون التقائهما وَجْهاً لوجه .

وقد اغتنمتْ السيدةُ آوودا فرصةَ نوم فوغ ، بعد أن استأنفَ القطارُ مَسيْرَهُ ، لتُخبِرَ فيكس وباسبارتو بما رأت ، كي يشتركا معها في معالجةِ الموقف ، فصاح فيكس :

« بروكتور في القطار ؟ ! .. لا تخشَيْ شيئاً ، يا سيدتي ! أنا الذي سأتولى أمرَهُ قبل السيد فوغ ، فلا شكَّ أن الذيَ تلقّى الإهانةَ الكبرى ، في هذه المسألةِ ، هو أنا بالذات ! »

وقال باسبارتو :

« لن يتولّى أمرَهُ سواي ، حتى ولو كانَ عقيداً خطيراً ! »

فعادت السيدة آوودا ، التي أصبحَتْ تعْرِفُ أخلاق فيليس تقول :

« إن السيد فوغ لن يَدَعَ أحداً يتولى عنه الثأرَ ! .. لقد قال إنه سيعودُ إلى أميركا لِلقاء هذا الذي أهانَهُ ، وسيعودُ ، فإذا رأى هذا العقيدَ فلن نستطيعَ أن نمنع المبارزةَ التي قد تؤدي إلى عواقبَ وخيمة .. إذن فعملُنا

ينحصرُ في منع هذا اللقاء بينهما . »

فيكس : « أنتِ على حقّ ، يا سيدتي ، فسواءٌ خرج السيد فوغ غالباً أم مغلوباً ، من هذه المبارزةِ ، فإن هذا من شأنِه أن يؤخِّرَ عودَتَهُ ! »

باسبارتو : « وسيكون هذا في مصلحة السادةِ أعضاء نادي الاصلاح ! أمامنا الآنَ أربعةُ أيام للوصولِ إلى نيويورك ، فإذا نجحْنا في استبقاء السيد فوغ في هذه العربة ، فأكبرُ الظنِ أنه لن يرى هذا الأميركيَّ اللعينَ ! وأعتقدُ أن في يدِنا منعَهُ من الخروج . »

وتوقّفتِ المناقشةُ عند هذا الحدّ ، لأنّ السيد فوغ استفاقَ وراحَ ينظرُ إلى الطبيعةِ من خلال الزُجاج . ولكنْ بعدَ لحظاتٍ سأل باسبارتو المفتشَ ، دون أن يسمعَهُ أحدٌ :

« أصحيحٌ أنك مستعدٌ لمبارزةِ الأميركيّ بدل السيد فوغ ؟ »

— « أنا مستعدٌ لكل شيء ، لقاءَ أن أعودَ به حياً إلى أوروبا ! »

قال هذا بهدوء ورزانة يدلاّنِ على تصميمٍ لا يتزعزع . فسرى من ذلك ما يُشْبِهُ القُشَعْريرةَ في جسدِ باسبارتو . صحيحٌ أن السيد فوغ قليلُ الحركةِ ، عديمُ الفضول

فمن المستبعد أن يغادر العربةَ ويتجولَ في القطار ، ولكنْ يجبُ معَ ذلك ضمانُ بقائه ضماناً أكيداً .. فما الوسيلة ؟ .. يلوحُ أن فيكس وَجدَ حلاً للمُعْضِلة .. قال يحادثُ فوغ :

« إن الساعاتِ طويلةٌ مُمِلّةٌ في القطار ! »

– « فعلاً ! .. ولكنها تمضي ، معَ ذلك ! »

– « لقد تعوّدت ، يا سيد فوغ ، أن تمُضيَ الوقتَ في لعبة الهويست ، وأنت على متون البواخر ! »

– « أجل ! ولكنّ هذا صعبٌ هنا .. فليس لدينا ورَقٌ ، ولا يُوجَدُ لاعبون » .

– « أما الورقُ فأمرُهُ ميسور .. إنهم يبيعونَ كلَّ شيء في القطاراتِ الأميركية .. وأما اللاعبونَ ، فهلِ السيدة ... ؟ »

قالت السيدة آوودا :

« بالطبع ، بالطبع ، يا سيدي ! إن الهويست جزءٌ من الثقافة الانكليزية ! »

فنظرَ إليها فوغ كأنهُ يَشكُرُها على هذا الإطراء . وأضاف فيكس :

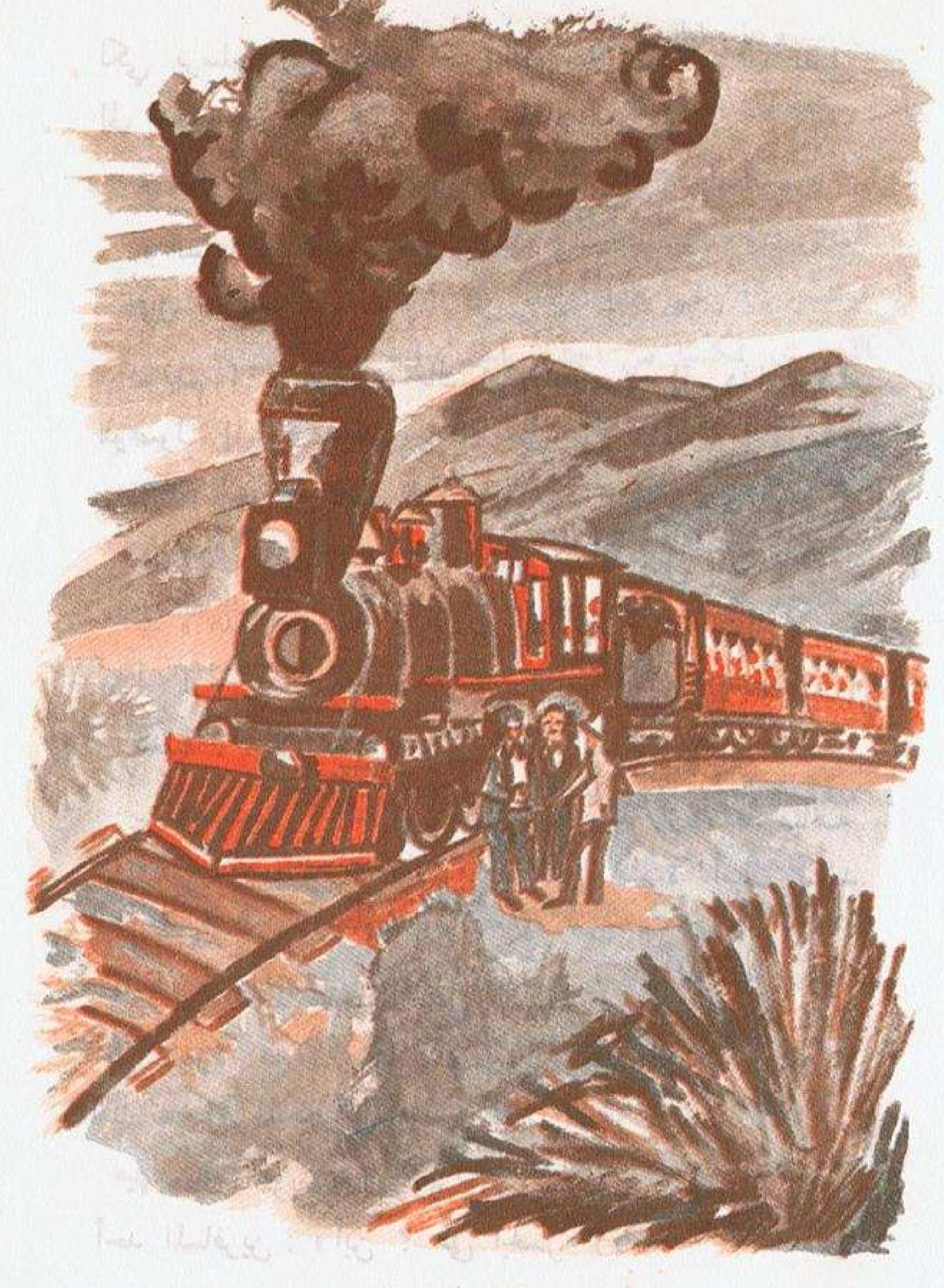
« وأنا أيضاً لا بأسَ بي في اللّعب .. ها قد أصبحنا ثلاثةً ، بالإضافةِ إلى شريكٍ ميْتٍ ! »

وسُرْعانَ ما ذهبَ باسبارتو إلى المُشْرف ، ولما عاد كان يحملُ مجموعتيْن من الورق ، ومائدةً صغيرة و « فيشاً » .

في الساعةِ الحاديةَ عشرةَ من الصباح وصلَ القطارُ إلى النقطة الّتي يلتقي فيها المحيطانِ ، عند « باس – بريدجر » ، وكان على ارتفاع سبعةِ آلافٍ وخمسمئة وأربعٍ وعشرينَ قدماً انكليزيةً عن سطح البحر ، وهي منطقةٌ من أعلى المناطقِ في « الجبال الصخرية » . ومن المنحدرِ المُشْرفِ على حوْضِ الاطلنطي تجري الروافد الأولى لنهر « نورث – بلات » . وعلى الأفقِ الشماليِّ والشرقيِّ كانت تمتدُّ جبالُ روكي (الصخرية) التي تعلُوها قمّةُ « لارامي » . بين هذا القوس العملاقِ والخطِّ الحديديِّ تمتدُّ سهولٌ شاسعة ، ترويها أنهارٌ غزيرة في مقدّمتها نهرُ اركنساس ، أحدُ روافدِ « المسوري » الهامّة .

لم يبْقَ سوى ساعاتٍ أمامَ القطارِ لاجتيازِ هذه المنطقة الصعبةِ التي يمكن أن يتعرّض فيها للحوادث . لقد توقّف الثلجُ عن السقوط ، وساد الطبيعةَ جوٌّ باردٌ جافّ .

بعد أن تناولَ فوغ وصَحْبُهُ الغداءَ في العربَة التي



القطار يتعطل

هم فيها ، عاد إلى اللّعِب مع السيدة آوودا وفيكس .
وفي هذه اللحظة سُمِعَ صَفيرٌ متلاحقٌ ، توقّف على أثرِهِ القطار . وأطلّ باسبارتو فلم يرَ أيّ محطة . وخَشِيَ صاحبا فوغ أن يهبطَ لمعرفة سببِ التوقف . ولكنّ هذا اكتفى بتكليف خادمِه بأن يذهبَ ويرى ما هناك .
فنزل باسبارتو ليستطلعَ الخَبَرَ ، كما نزل نحوُ أربعينَ شخصاً بينهم العقيد بروكتور .

لقد توقّفَ القطارُ أمام إشارةٍ حمراء ، وكان الميكانيكي والسائقُ يتناقشانِ مع حارسِ خطٍ أرسلَهُ مديرُ المحطة التالية لايقاف القطارِ ، ومنعِهِ من التقدم . والسببُ في ذلك أن جسر « ميدسين بو » مزعزعٌ لا يستطيع أن يتحمل ثقلَ القطار . وكان ذلك جسراً محمولاً يَمُرُّ فوقَ أحدِ الأنهار السَّيْلية . وقد تقطّعَتْ بعضُ جنازيره — حَسَبَ ما روى الحارسُ — فأصبح مهدّداً بالسقوطِ فيما لو مرّ فوقَهُ مثلُ هذا القطارِ الثقيل .

قال بروكتور مغتاظاً :

« ماذا ؟ ! .. لن تتركونا ، مَعَ ذلك ، نَنْزرعُ في الثلج ! »

فأجاب السائق :

« لقد أبرَقْنا إلى محطة أوماها ، يا سيّدي العقيد ،

لكي يرسلوا إلينا قطاراً ، ولكنْ لا يُنتَظَرُ أن يصلَ
إلى « ميدسين بو » قبل الساعةِ السادسة ! »

فتساءل باسبارتو :

« الساعة السادسة ؟ ! »

قال السائق :

« نعم ! .. على أيّ حال نحن محتاجونَ إلى هذا الوقتِ
للوصول إلى « مدسين بو » سيراً على الأقدام ! »

فقال أحد الركاب .

« وكيف ذلك ؟ ! .. إننا على مسافة ميل منها ؟ ! »

— « هذا صحيح ! ولكن لا تنسَ أن بيننا وبينها
نهراً ! »

العقيد : « ألا يمكن اجتياز النهر بالقارب ؟ »

— « مستحيل ! إنه نهر سَيْليّ ، وقد ازدادتْ مياهُهُ
على أثرِ الأمطار ، فعلينا أن نسيرَ عشرةَ أميال لنجد
عبّارة . »

فصبّ العقيد اللعناتِ على الشركة ! ولم يكن باسبارتو
أقلّ ثورةً منه .. على أيّ حال كان الإستياءُ عاماً .
هنا تدخّلَ الميكانيكيّ فوستر قائلاً :

« هناك طريقةٌ للمرور ، مع ذلك ! »

أحد المسافرين : « أين ؟ على الجسر ؟ »

— « على الجسر . »

العقيد : « بالقطار ؟ »

— « بالقطار ! »

السائق : « ولكنّ الجسْرَ مهدّدٌ بالسقوط ! »

فوستر : « رغمَ هذا أعتقدُ أن إطلاقَ القِطارِ بالسرعةِ
القصوى يمكّننا من اجتياز الجسر ! »

وراقتِ الفكرةُ للبعض ، وتحمس لها بروكتور ، ودارَ
النقاشُ حول ذلك .. وقال العقيدُ إن بعضَ المهندسين
فكّروا في استغلال الاندفاعِ بحيث يقفزون بقطاراتٍ
موصولة فوقَ الأنهار دون وجود جسورٍ على الاطلاق .
وقال أحد المسافرين : « إن أملَ النجاحِ يبلغ خمسين في
المئة » . وقال آخر : « بل ستين ! »

وزاد الرقم حتى أدرك التسعين في المئة .

وصُعِقَ باسبارتو رغم أنه كان أحرصَ الجميعِ على
الوصولِ بسرعةٍ حتى لا يتأخرَ سيدُهُ عن موعد الرّهان ،
ولكنه وجدَ المجازفة « أمريكيةً » أكثر مما ينبغي . فقال
لأحدِ المسافرين :

« هناك طريقةٌ أسهلُ بكثير ، ومع ذلك لا يفكّرُ
أحدٌ فيها .. إنّ الحلَّ الذي اقترحَهُ الميكانيكيُّ فيه
مجازفةٌ كبيرةٌ ، و ... »

فقاطعه المسافر قائلاً :

« قيلَ لكَ إن هناك ثمانين في المئة من فُرَص النجاح !» ثم أدار له ظَهْرَهُ . فتوجَّهَ إلى آخرَ واستطرَدَ يقول :

« أنا أعلمُ ذلك ، ولكنْ لو فكَّرْنا قليلاً ... »

ــ « ولمَ التفكيرُ ما دامَ المهندِسُ هو الذي يقولُ ذلك ؟ ! »

ــ « لا شكَّ في كلامِ المهندس ، ولكنْ من بابِ الحذَر ... »

فقال العقيدُ غاضباً :

ــ « الحذر .. الحذر ! .. قلنا لك بالسّرعة القصوى .. هل فهمْتَ ؟ .. بالسرعة القصوى ! »

ــ « فهمتُ ، فهمتُ .. ولكنْ إذا لم يكنْ مــن الحذَر ، فمن الطبيعيّ ... »

وتصايحَ الرّكابُ من كل ناحية ، ساخرينَ من الشابّ الفرنسيّ . ولم يشأ أحدٌ أن يستمعَ إليه ، فلم يعرِفْ كيف يتصرّفُ معهم .. قال له العقيد :

« هل أنتَ خائف ؟ »

ــ « أنا ؟ ! .. أنا لا أخاف ! .. هيّا ! » وقال في نفسه : « سأثبِتُ لهؤلاء الناسِ أن في استطاعةِ الفرنسيّ أن يكون أميركياً أكثرَ منهم ! »

وصاح السائق :

فردَّدَ وراءه باسبارتو :

« أجل ، إلى القطار ! ولكنَّ هذا لا يمنعُ أن أقولَ إنه كان من الأفضل أن يجتازَ الرّكّابُ الجسر سيراً على الأقدامِ ، ثم يَمُرُّ بعدَهُم القطار ! »

ولكنَّ أحداً لم يستمعْ إلى هذه الفكرةَ الحكيمة ، أو يعترِفْ بصوابها . وعادَ الجميعُ إلى أماكنهِم في العربات . وصفرتِ القاطرةُ بشدّة ، وعاد القطارُ القَهْقَرَى نحو ميل ، كأنّهُ لاعبٌ يتحفّزُ للوثوب من فوقِ حاجز . ثم انطلقَتْ صَفْرَةٌ ثانية وتحرّك القطار ، وراحَتْ سرعتُهُ تتزايدُ لحظةً بعدَ أخرى ، إلى أن أدركَتْ أعلى مستوىً لها ، وخُيِّلَ للركّابِ أن القطارَ يطيرُ فوقَ الخط بخفّةٍ ، كأنّ السرعة امتصّتِ الوزنَ بأكمله .

وفي لحظة أصبحَ القطارُ على الضّفّة المقابلة من النهر ، ولكنْ في اللحظة التالية كان الجسرُ ينهارُ مُفْرقعاً ، ويَسْقُطُ حُطامُهُ في النهر السّيْليّ !

٢٩ . حوادث من نوع جديد

خلالَ المساء سارَ القطارُ دونَ أن يصادفَ أيّ نوعٍ من العقبات ، ووصلَ إلى ممرّ « ايفانس » ، حيث يبلغُ الخطُّ الحديديُّ أعلى نقطة له ، فيسجل ارتفاعاً مقدارُهُ ثمانيةُ آلاف وإحدى وتسعينَ قدماً . ولم يَعُدْ أمامَ المسافرينَ إلاّ أن ينحدرَ بهم القطارُ نحوَ الاطْلَنطي في تلك السهول ، التي مَهّدَتها الطبيعةُ والتي لا يَحدُّها البصر . هناك ينفصلُ فرعٌ من الخطّ الرئيسيّ يذهب إلى مدينة « دنفر » ، أهمِ مدينةٍ في ولايةِ كولورادو . هذه المنطقةُ غنيةٌ بالذهب والفضة .

حتى تلك اللحظة كان القطارُ قد قطعَ مسافةَ ألفٍ وثلاثمئة واثنين وثمانين ميلاً ، منذ أن غادرَ سان فرانسيسكو وقد قَطَعَها في ثلاثة أيامٍ بلياليها . وحسبَ التقديرات العادية بَقِيَ أمامه أربعةُ أيامٍ بلياليها ليصِلَ إلى مدينة نيويورك . إذن فالسيد فوغ يسيرُ طبقاً للمواعيدِ الطبيعية ، دون كسب في الوقت أو خسارة . وفي أثناء الليل تركَ القطارُ عن شماله « والباه » ، وكان نهرُ « لودج بول » يجري في محاذاة الخطّ على طول الحدود المستقيمةِ بين ولايتي وايومنغ وكولورادو . وفي الحاديةَ عشرةَ ليلاً دخل « نبراسكا» .

في الثامنةِ من صباحِ اليومِ التالي تخطّى القطارُ قلعةَ « ماك فرسون » ، ولم يَعُدْ بينه وبين « أوماها » سوى ثلاثمئة وسبعة وخمسينَ ميلاً . وفي هذه المنطقةِ كانت سكةُ الحديدِ تَتَبَعُ تعاريجَ الفرعِ الجنوبيّ لنهر « بلات » وفي التاسعةِ دخلَ القطارُ مدينةَ « نورث بلات » القائمةَ بين ذراعَيْ هذا النهرِ الكبير . هنا يتّحدُ الفرعان ليؤلّفا مجرىً عظيماً ، يَصُبُّ في « الميسّوري » ، فوق أوماها بقليل .

كان السيد فوغ يتابعُ لَعِبَ الهويست هو والسيدة آوودا والسيد فيكس ، ولم يكن أحدٌ منهم يشكو من طول الطريق ، والضجر . وبينما كانوا منهمكينَ باللّعب ، وفي أحدِ المواقفِ الدقيقةِ تدخّلَ أحدُ المتفرجين ، وكان قد وقفَ بالقُرب منهم . فرفعوا أبصارَهُمْ إليه ، فإذا بهم أمام العقيد بروكتور . وفي الحال عرف ستامب بروكتور وفيليس فوغ ، كلٌّ منهما الآخرَ . قال العقيد :

« أهذا أنت ، يا سيدي الانكليزيّ ، الذي تريدُ أن ترميَ « البستوني » ؟ »

فأجاب فيليس فوّغ بجفاف وهو يرمي « عشرة » من هذا النوع :

« مَن يجبُ أن يَرمِيَها إذن ؟ ! »

فقال العقيد بحدة :

« يجب إلقاء « الديناري » .. هكذا أنا ألعب ! »

وأتى بحركة لالتقاطِ الورقةِ وهو يقول :

« أنت لا تفهمُ شيئاً من هذه اللعبة ! »

فنهضَ فيليس فوغ وهو يقول :

« لعلي أكونُ أمهرَ في لعبة أخرى ! »

فردّ الرجلُ الشرِسُ قائلاً :

« جرّبْ ، يا ابن جون بول ! » (رمز إلى الانكليز) .

كان وجهُ السيدة آوودا شاحباً ، وقد أمسكتْ بذراعِ فوغ ، فأزاح يدَها برقّة . أما باسبارتو فقد كان يوشكُ أن ينقضّ على الأميركي ، الذي كان ينظرُ باحتقارٍ إلى فوغ . غير أن فيكس نهضَ من مكانهِ وتقدّمَ من العقيد بروكتور ، وقال له :

« لقد نسيتَ ، يا سيدي ، أن المسألةَ هي بينك وبيني أنا ، فأنت لم تُهِنّي فقط ، بل ضرَبْتني أيضاً ! »

قال فوغ :

« أرجو المعذرةَ ، يا سيد فيكس ! فالأمرُ يَخصُّني وَحْدي ! إن العقيدَ ، وقد ادّعى أنني أخطأتُ في رمي « البستوني » ، وَجّهَ إليّ إهانةً جديدةً ، ولا بُدّ

من أن يدفعَ الثمن ! »

فأجابَ الأميركيُّ بقوله :

« أنّى ومتى شئتَ ، وبالسّلاح الذي تختار ! »

وعبثاً حاولت السيدة آوودا أن تَرُدَّ السيد فوغ . كذلك أخفق فيكس في أن يجعلَ المعركةَ معركتَهُ . وكان باسبارتو يريدُ أن يقذفَ بالعقيد من باب القطار ، ولكنّ إشارةً من سيّدِهِ أوقفتْهُ تماماً . وغادرَ السيد فوغ العَرَبَةَ إلى الممرّ ، وتبعَهُ العقيدُ . ولما أصبحا خارجَ العَرَبة قال فوغ لخصمه :

« سيّدي ! إنني في عجلة من أمري لأعودَ إلى أوربا ، وأيّما تأخير من شأنهِ أن يُصيبَ مصالحي بضررٍ بالغ ! »

— « وما شأني أنا ؟ »

— « سيدي ! بعد لقائنا في سان فرانسيسكو ، وَطّنْتُ العزْمَ على أن أعودَ إلى أميركا بعد أن أكونَ قد صرَفْتُ الشؤونَ التي تَدْعوني الآنَ إلى العالم القديم ! »

— « حقاً ؟ ! »

— « أتحبُّ أن نضربَ موعداً بعد ستةِ أشهر ؟ »

— « ولمَ لا يكون بعدَ ستّ سنوات ؟ ! »

— « قلتُ ستةَ أشهر ، وسأكونُ هنا في الموعدِ دونَ خطأ ! »

— « كلٌّ هذا انهزام في انهزام ! .. نتبارزُ الآنَ أو لا نتبارز ! »

— « ليَكُنْ ! هل أنت ذاهبٌ إلى نيويورك ؟ »

— « كلا ! »

— « إلى شيكاغو ! »

— « كلا ! .. ليس هذا مُهِماً ! .. هل تعرف « بلوم كريك » ؟

— « كلا ! »

— « إنها المحطة القادمة ! والقطارُ يقفُ فيها عَشْرَ دقائق ، وفي عشرِ دقائقَ نستطيعُ أن نتبادلَ عدة رَصاصات ! »

— « ليكن ! سأتوقّفُ في « بلوم كريك » .

— « ويغلب على ظني أنك ستبقى فيها ! »

قال الأميركيُّ هذا بوقاحة تفوقُ التصوّرَ ، فأجاب فوغ :

« من يدري ، يا سيدي ؟ ! »

ثم تركَهُ ، وعادَ إلى العربةِ وهو محتفظٌ بهدوئِه كالعادة .

وما إن جلسَ حتى راحَ يهدّئُ مخاوفَ السيدة آوودا ، قائلاً إن الناسَ المغرورين لا يُخيفون . ثم

طَلَبَ من فيكس أن يكونَ شاهدَهُ ، في المعركةِ التي ستدورُ عما قريب . فلم يستطِعْ فيكس أن يرفُض . بعد ذلك استأنف فوغ اللّعِبَ وألقى بورقةِ البستوني .

في الساعةِ الحاديةَ عشرةَ صَفَرَ القطارُ مُعلناً قرب وصولِه إلى محطةِ بلوم كريك . فنهض فوغ وسارَ إلى الممرّ ووراءه فيكس ، وتبعَهما باسبارتو وهو يحمل مسدّسَين . أما السيدةُ آوودا فقد لبثَتْ في مكانِها وعلى وَجْهِها صُفْرَةُ الموت .

وفي هذهِ اللحظة فُتِحَ بابُ العربةِ الثانيةِ وظهرَ العقيدُ بروكتور ومعَهُ شاهدُهُ ، وهو أميركيٌّ من طرازه . وما إن همّ الاثنانِ بالنزولِ حتى أقبلَ السائقُ جارياً وقال :

« لن يَنْزِلَ أحدٌ ، أيها السادة ! »

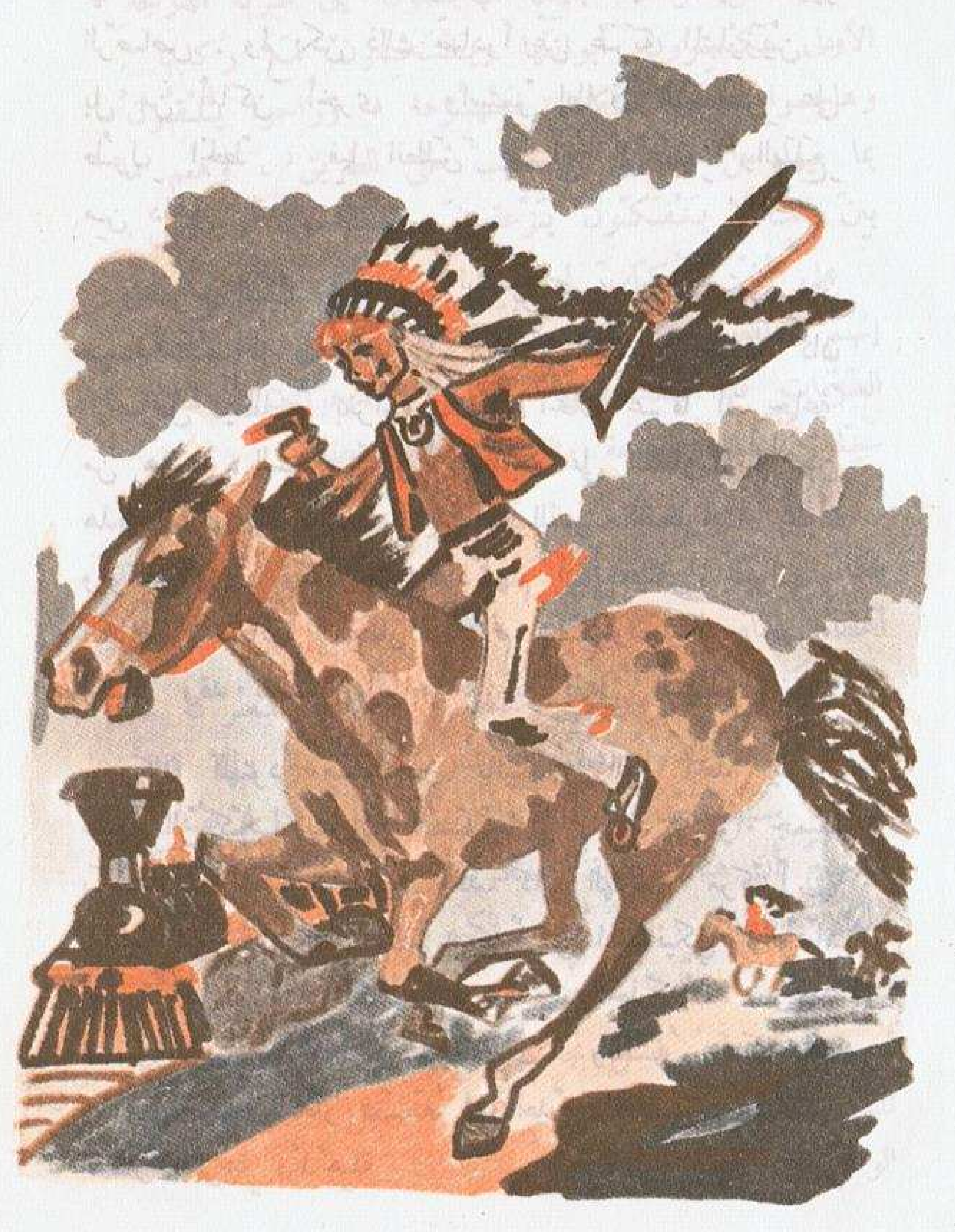
فسأله العقيد :

« ولماذا ؟ »

— « لأننا تأخّرْنا عشرينَ دقيقةً ، ولهذا لن يتوقّفَ القطار ! »

— « ولكنْ عليّ أن أتبارزَ مع هذا السيد ! »

— « آسف ، يا سيدي ! سنسيرُ فوراً .. ها هو الجرسُ يرنّ ! » وكان جرسُ المحطةِ يَرِنُّ بالفعل ، وسُرْعان



الهنود الحمر يهجمون على القطار

ما تحرّكَ القطار . وعاد السائقُ يقولُ :

« أنا في غايةِ الأسفِ ، أيها السادة ، ولو كنت في ظرفٍ آخرَ لما تأخّرْتُ عن تقديمِ الخدمة ! .. ولكنْ ما الذي يمنعكُما من التبارز أثناءَ الطريق ؟ »

قال الكولونيل :

« قد يكونُ هذا غيرَ مناسبٍ للسيد ! »

فردَّ فيليس فوغ بقوله :

« بل هذا يُناسبني تماماً ! »

عندها سارَ الجميعُ وراءَ السائق ، الذي انتقلَ بهم من عرَبةٍ إلى أخرى حتى أصبحوا في العربَةِ الأخيرةَ التي لم يكنْ يشغَلُها سوى عشرةِ أشخاص . فرجاهُم السائقُ أن يغادروا أماكنَهم للَحظَات ، لأن هناك سيّدَيْنِ محترَمَيْنِ لديهما قضيةُ شرف يريدُ أن يُصفّياها . وسُرْعانَ ما انسحبَ الرّكّابُ إلى الممرّ الخارجيّ فرِحينَ بإرضاءِ السيّدَيْنِ المُحترَمَيْن . وتُركَ السيّدُ فوغ والعقيدُ بروكتور وَحْدهما في العَرَبَةِ ، وأغلقَ عليهما البابُ بينما وَقفَ شاهداهما في الخارج . وكان عليهما أن يُطلقا النارَ عندما يَصفِرُ القطار ، وبَعْدَ دقيقتَيْنِ يُخرِجُ الشاهدانِ ما بقيَ من السيّدينِ المحترَمَيْن ! وهكذا لبثَ الجميعُ ينتظرونَ صفيرَ القطار . ولكن

في هذهِ الأثناء تردّدَ زعقٌ رهيبٌ يصحبُهُ أزيز الرّصاص . ولم يكن ذلك صادراً عن عربةِ المتبارزيْن ، بل من أماكنَ أخرى . واستمرّ إطلاقُ الرّصاصِ على طُولِ الخطّ ، فيما انطلقَ صُراخُ الرّعبِ والهلَعِ مِن داخلِ القطار .

وخرجَ السيّد فوغ والعقيدُ بروكتور ، وهما يحملان مُسدّسيهما ، وهُرعا إلى مُقدّم القطار ، حيث كان الرّصاص يُطلَقُ بغزارة . وفي الحال عرَفا أن جماعةً من هنود « السيو » تشُنُّ هجوماً على القطار . لم تكن هذه أوّلَ مرة يهاجمُ فيها « السيو » القطاراتِ بجرأة ويوقفونها . وكان من عادتِهم أن ينطلقوا بخيولِهم السريعةِ بمحاذاةِ القطارِ ، ثمّ يقفزونَ عن ظهورِ الجيادِ وقد تعلّقوا بأبوابه ، كما يفعلُ البهلوانات .

وكان الهنودُ مُسلّحين بالبنادقِ التي أخذَ يردُّ عليها الرُّكّاب بنيرانِ مُسدّساتهم ، إذ كانوا جميعاً يحملونَ المُسدّسات . وقد كان الهجومُ مركّزاً في البداية على القاطرة . فتلقّى كلٌّ من الميكانيكيّ والوقّاد ضربةً على رأسه ألقتْهُ أرضاً . وأخذَ أحدُ زعماءِ العصابةِ يعالجُ القاطرةَ لإيقافها ، ولكنّهُ بدلَ أن يخفّفَ ضغطَ البخار فتحَهُ إلى حدّه الأقصى ، فانطلقَ القطارُ بسرعةٍ مُذهِلة .

في نفس الوقت اندفعَ المهاجمونَ إلى عربةِ الدرجةِ الأولى يكسرونَ أبوابَها ويلتحمونَ معَ رُكابها . وهاجموا عربةَ الأمتعةِ فنهبوها ، وراحوا يُلقونَ بما فيها من صناديقَ وحقائبَ على الطريق ، وهُم ما بينَ ذلك لا ينفكّونَ يزعقونَ ، ويُطلقونَ الرّصاص .

على أنّ الرُّكّابَ لم يقفوا مكتوفي الأيدي ، بل إنهُمْ دافعوا عن أنفسِهم ببسالة ، حتى إنّ بعض العرباتِ قد أقيمتْ فيها المتاريس ، فتحوّلتْ إلى قِلاعٍ سيّارةٍ تنطلقُ بسرعةِ مئةِ ميلٍ في الساعة .

ومنذُ البدايةِ تصرّفتِ السيّدةُ آوودا تصرُّفَ الشجعان ، فكانتْ تُطلقُ الرّصاص عبر النافذة ، من مُسدّسٍ أعطاها إيّاه باسبارتو .

كان من الضروريّ الانتهاءُ من هذهِ المعركة ، التي كانتْ تدورُ منذُ عشرِ دقائقَ ، وإلا فإنّ الهنودَ سيستولونَ على القطارِ برمّته ، إذا لم يقفْ . صحيحٌ أن هناكَ نقطةً عسكريةً على بُعدِ ميلَين ، ولكنّ القطارَ ، بسرعته الكبيرة ، لن يلبثَ أن يتخطّاها ، وعندها يُصبحُ في أيدي المهاجمين .

وكان السائقُ يقاتل بجانب فوغ . ولكنهُ ما لبثَ أن تلقّى رصاصةً سقطَ على أثرها ، وقبل أن يغيبَ عن الوعي قال لفيليس :

« إننا ضائعونَ حتماً إن لم يتوقّفِ القطارُ خلالَ خمسِ دقائق ! »

قال فوغ ، وهو يَهُمّ بالاندفاعِ خارجَ العربة :

« سوف يقف ! »

ولكن باسبارتو صاح :

« إبقَ هنا ، يا سيدي ، فأنا أتولى هذا الأمر ! »

ولم يجِدْ فوغ فرصةً لمنع هذا الشاب الشجاع الذي خرج بخفّة من الباب ، دون أن يراهُ الهنود ، وزحفَ إلى تحت العربة ، حيث عاد يمارِسُ مهنةَ البهلوان . وهكذا وَصلَ تحت العرَباتِ إلى حيث كان القطارُ مربوطاً بالقاطرة . وبسُرْعانَ ما فكّ ذلك الرباط فانفصلت القاطرةُ عن العرَباتِ وظلّت مندفعةً في سيرِها الجنوني ، بينما أخذتْ سُرعةُ القطارِ تتناقصُ بالتدريج ، بمساعدةِ « الفرامل » الداخلية ، إلى أن توقّفَ قبل محطةِ « كيرني » بقليل . وكان جنودُ المركزِ قد سمعوا صوتَ الرّصاص فهُرِعوا إلى مكان القطار ، ولكنّ الهنود لم ينتظروهم: إذْ لم يَصِلوا إلى المكانِ حتى كان « السيو » قد غابوا عنِ الأنظار .

هنالك جرى إحصاءُ الرّكاب فلوُحظَ اختفاءُ عددٍ منهم ، بينهمُ الشابُّ الفرنسيّ الباسلُ الذي أنقذَ الجميع .

٣٠ . فيليس يقوم بواجبه

كان عددُ المفقودين ثلاثةً .. فهل قُتِلوا ؟ .. هل خُطفوا ؟ .. لا أحدَ يعْرِف .

أما الجرحى فقد كان عَدَدُهُم مرتفعاً ، ولكنّ إصاباتِهم لم تكن خَطِرةً ، فيما عدا العقيد بروكتور الذي قاتَلَ ببسالة ولكنه أصيبَ برصاصة اخترقتْ حالبَهُ ، فنُقِلَ مَعَ عددٍ من المصابين إلى المحطةِ لإسعافهم .

كذلك أصيبَ فيكس في ذراعِهِ . أما فوغ ومدام آوودا فلم يُصابا بأيّ خَدْش . ولكنّ هذهِ الأخيرةَ كانت تُرْسِلُ الدمعَ مِدْراراً على اختفاءِ باسبارتو .

كان الرّكابُ جميعاً خارجَ القطارِ الذي كانت عَجَلاته مُلَطّخةً بالدماء ، وكان السيد فوغ يقِفُ ، وقد عَقَدَ ذراعَيْهِ على صدره ، وغَرِقَ في تفكيرٍ عميق : إن كان خادمُهُ أسيراً عند الهنود أفليس من واجبه أن يحاولَ المستحيلَ لإنقاذِهِ ؟!

ثم خرجَ عن صمتِهِ بهذا القرار :

« سأعودُ به حيّاً أو ميْتاً ! »

وأضاف :

«نعودُ به حياً إنْ نحنُ أسرعنا !»

بهذا القرارِ كان فوغ يَجْري نحو خرابِه ، لأنَّ تأخيرَ يومٍ واحد من شأنه أن يجعلَه يُخطِئُ الباخرة في نيويورك ، وبذلكَ يَضيعُ رِهانُه بصورةٍ نهائية .

وكانَ هناك قائدُ المَوْقع ، ومعَهُ نحوُ مائةِ جندي ، فقال فوغ :

«سيدي ! إن ثلاثةً من المسافرينَ قد فُقِدوا .. إنهم في أيدي الهنود ، فهل أنتَ مستعدٌ لملاحقةِ الهنود ؟»

— «العملية خطِرةٌ ، يا سيدي ! ففي استطاعه هؤلاء الهنودِ أن يَفِرّوا إلى أركنساس ، وأنا لا أستطيعُ أن أغادرَ القلعةَ التي أوكِلَ إليَّ أمرُ الدفاعِ عنها !»

— «سيدي إن هناك ثلاثةَ رجالٍ مهدَّدين بالموت !»

— «هذا صحيح .. ولكنني لا أستطيعُ أن أعرِّض حياةَ خمسينَ للخطرِ لإنقاذِ ثلاثة !»

— «لست أدري ، يا سيدي ، إن كنتَ تستطيعُ أوْ لا تستطيع ، ولكنَّ الذي أعلمُه هو أن من واجبكَ إنقاذَهم !»

— «ليس لأحدٍ هنا ، يا سيدي ، أن يَدُلَّني على واجبي !»

— «إذن فأنا ذاهبٌ بمفردي !»

فصاح فيكس :

«أنتَ ، يا سيدي ؟ ! .. تلاحقُ الهنود ؟ !»

— «أتريدُ مني أن أتخلى عن ذلك الذي كلٌّ من في هذا القطار يدينُ له بالبقاء ؟ ! .. لا بُدَّ أن أمْضِي !»

فقال القائدُ بحماسة ، وقد تأثَّرَ بهذا الموقف :

«مادامَ الأمرُ كذلك ، فلن تذهَبَ وَحْدَكَ ! .. كلا ! .. أنت رجلٌ شجاعٌ !» . وأضاف مُلْتَفِتاً إلى رجاله : «أريدُ ثلاثينَ متطوعاً !»

فتقدَّم الرجالُ جميعاً ، فاختارَ منهمُ النقيبُ ثلاثينَ ووضع على رأسِهِم رقيباً . قال فوغ :

«أشكرُكَ ، يا سيدي النقيب !»

وتقدَّم فيكس من فيليس وقال :

«أتسمَحُ لي بمرافقَتِك ؟»

— «تستطيعُ أن تفعَلَ ما تشاء ، ولكنكَ تؤدي إليَّ خدمةً كبيرة ببقائك إلى جانب السيدة آوودا لتهتَمَّ بأمرها فيما لو حدَثَ لي شيء !»

فامتَقَعَ وَجْهُ المفتش .. كيف يبتعِدُ عن الرجل الذي لاحقَهُ آلافَ الأميال ؟ ! أليس من المُحْتَمَلِ أن يهرب ؟ !

ولكنه لم يجد مَعْدًى عن البقاء .

وودّع فوغ السيدة آوودا بعد أن تركَ بين يديْها كيسهُ الثمين : ثم التفتَ إلى الجنود وقال لهم :

« أيها الأصدقاء ! لكم مني ألفُ جنيه إن نحن أنقذنا الأسرى ! »

كان الوقتُ ظهراً ، فتوجهت السيدة آوودا إلى إحدى غُرَفِ المحطةِ ولبثَتْ تنتظرُ فوغ ، وهي تفكّر فيه . لقد كانَ في نظرِها بطلاً .. كل ما فيه يستحوذُ على إعجابها : مسارَعتُهُ إلى النجدة .. كرَمهُ الذي لا يُبارَى .. شجاعتُهُ الصامتة ... !

أما المفتشُ فيكس فقد كان يَذْرعُ رصيف المحطةِ جيْئةً وذَهاباً ، بعَصبيةٍ ظاهرة ، ويلومُ نفسَهُ على التهاوُنِ في واجبه ، والتّصرّف ببلاهةٍ وسوءِ تدبير .

في حوالى الساعةِ الثانيةِ بعد الظهرِ ، وبينما كان الثلجُ يتساقطُ بشدّةٍ سُمِعَ صفيرُ قاطرةٍ ، وظهرَ توَهّجٌ في الضبابِ القاتمِ الذي كان يلفّ كل شيء .

لقد كانت تلك هي القاطرة التي انفصلتْ عن عرباتها ، وفيها الميكانيكيّ والوقّاد ، غائبيْن عن الوعي . فبعد أن اندفعَتْ مسافةً طويلة ، بدأتْ نيرانُها تضْعُف وبالتالي ضَغْطُ البخار والسّرعةُ . ثم توقّفت نهائياً على مسافةِ عشرينَ ميلاً . ولما أفاقَ الميكانيكيُّ والوقّاد ،

وجدا نفسَهما ضائعيْن في الصحراء المُترامية . ففهما في الحال ما حدَثَ ، دون أن يَعرفا مَنِ الذي قام بعمليةِ الفصْل . وفي الحال عادا بالقاطرةِ إلى حيثُ كانت العربات .

بالطبع كان فرَحُ المسافرينَ شديداً عندما رأوْا القاطرةَ تعود ، وترْبَطُ مرةً أخرى بالقطار كيما يَستأنفَ رحلَتَهُ . وأقبلت السيدة آوودا على السائق وسألَتْه :

« ماذا ؟ .. أأنتم سائرون ؟ ! »

— « حالاً ، يا سيدتي ! »

— « ورفاقُنا الآخرون ؟ والأسرى ؟ »

— « لقد تأخّرنا ثلاثَ ساعات ، وليس في إمكاني أن أوْقِفَ الرحلة ! »

— « ومتى يمرّ القطارُ القادم ؟ »

— « مساءَ الغد ، يا سيدتي ! »

وحاولت السيدةُ آوودا أن تَستبْقيَهُ ، ولكنه أعلنَ استحالةَ ذلك ، فرفضتِ الصعودَ إلى القطارِ الذي ، بعد أن نُقِلَ إليه المصابونَ وبينهم العقيدُ بروكتور ، أطلقَ صفارَتهُ ، وانطلقَ مبتعداً عنِ المحطة . وغنيٌ عن البيانِ أن فيكس قد بقيَ مع السيدةِ آوودا في انتظار فوغ .

وانقضت عدةُ ساعات ، وكان الطقسُ في غاية الرداءة ، والثلوجُ تتساقطُ باستمرار .

وأقبل المساءُ ، وبعدَهُ الليلُ ، فخفّ تساقُطُ الثلج في حينَ اشتدّ البردُ . وانقضى الليلُ دون أن يغمُضَ للسيدةِ آوودا جفنٌ . كذلك لم ينمْ فيكس . ولم يكن قائدُ الموقعِ بأقلّ قلقاً على رجالِهِ ولكنّهُ لم يُظهرْ ذلك .

وجاء الصباحُ فاستبدّ القلقُ بالنقيب ، وحارَ في أمره : هل يجازفُ برجالٍ آخرينَ في عمليةِ إنقاذ قد لا تكون أوفرَ حظاً من سابقتِها في النجاح ؟ وكانَ على وشك أن يُرْسِلَ فرقةَ استطلاع عندما سُمِعَتْ طلقاتُ رَصاصٍ من بعيد . فخرَجَ جميعُ الجنودِ من القلْعة ، ورأوْا على بُعْدِ نصفِ ميلٍ جماعةً من الرجال تتقدّمُ بنظام .

كان على رأسِ الفرقةِ المُقبِلةِ فيليس فوغ وبجانبهِ باسبارتو والمسافرانِ الآخران . واستُقبِلَ الجميعُ بمظاهرِ الفرح . كما وزّعَ السيد فوغ على الجنود المكافأةَ التي وَعَدَهُمْ بها .

وكان فيكس ينظرُ إلى فوغ دونَ كلام ، ولعلّ من الصعب تحليلَ الأحاسيسِ التي كانت تعتَمِلُ في

داخلِه . أما السيدة آوودا فقد أخذَتْ يد فوغ بين يدَيْها ولم تستطعْ أن تتَفَوّهَ بكلمة . وصاح باسبارتو ، الذي كان يتوقّعُ وجودَ القطارِ واستئنافَ الرحلةِ بسرعةٍ لتعويضِ الوقتِ المضاع :

« القطار ؟ .. أين القطار ؟ »

فأجابه فيكس :

« لقد رحل ! »

٣١ . وسيلة اخرى للسفر

كانت خسارةُ فوغ ، في الوقت ، عشرينَ ساعة .. وهذا بسببِ باسبارتو .. لهذا كان الخادمُ الفرنسيُ في غايةِ الحزن ، في هذه اللحظة تقدّم فيكس من السيد الانكليزي ، وقال له :

— « هل أنت فعلاً حريص على الإسراع في السفر ؟ »

— « جداً ! »

— « أقصد هل أنت حريصٌ على أن تكون في نيويورك يوم ١١ من الشهر قبل التاسعةِ مساءً ، موعد إبحار السفينة ليفربول ؟ »

— « كلّ الحِرْص ! »

— «هل لك في تجربة هذا النوع من المواصلات لاستدراك الوقت الضائع ؟»

— «ما هو ؟»

— «زحافة .. زحافة بشراع !»

وأشار إلى الرجل الذي يملك تلك الزحافة ، والذي كان يتمشى أمام المحطة . فتوجه فوغ نحو الرجل واسمه مودج ، وطلب إليه أن يريه العربة التي يملكها .

كانت تلك الزحافة عبارة عن مسطح أشبه بقاعدة عربة ، وهو يعتمد على عارضتين مرتفعتين من أمام ، ويتسع لخمسة أو ستة أشخاص . وقد زودت هذه الزحافة ، التي كانت تستخدم عند تراكم الثلوج وتوقف القطارات ، بشراع مرتفع ، وبجهاز خلفي للتوجيه .

وما هي سوى لحظات حتى اتفق فوغ مع صاحب الزحافة لنقله إلى «أوماها» . ولكنه طلب من باسبارتو أن يبقى مع السيدة آوودا ليأخذا القطار التالي ، ومن ثم يرافقها إلى أوربا دون سرعة ، وذلك ليجنبها ركوب الزحافة المكشوفة في هذا الصقيع الذي سيزداد حدة بالطبع نظراً للتحرك السريع .

ولكن السيدة آوودا أصرت على مرافقة فوغ ، مما أسعد باسبارتو ، الذي كان مغتاظاً من الانفصال عن سيده ، بينما فيكس في صحبته .

أما هذا الأخير فقد تكون فكرته عن فوغ قد طرأ عليها شيء من التبدل ، عندما رآه يعود بعد تحرير الأسرى ، ولكن تصميمه على ملاحقته والقبض عليه لم يتغير ، رغم كل ذلك .

في الساعة الثامنة كانت الزلاجة جاهزة . فاتخذ المسافرون مجلسهم عليها ، وقد لفوا أنفسهم ببطانيات السفر . وارتفع الشراعان العاليان ، وانطلقت على الجليد بسرعة أربعين ميلاً في الساعة .

كان الركاب متلاصقين ببعضهم ، وقد اشتد البرد عليهم مع ازدياد السرعة ، وحالت الريح بينهم وبين تبادل الحديث .

وكان السهل منبسطاً على امتداد البصر ، حتى ليخيل للمرء أنه بحيرة متجمدة . وقد حرص «مودج» أن يسير بزلاجته في خط مستقيم يشكل وتراً بالنسبة إلى القوس التي يرسمها الخط الحديدي إذ يلازم الضفة الشرقية لنهر «بلات» .

وقبل الساعة الواحدة وصلت الزحافة بخير إلى

محطّة أوماها، التي كان يتفرّع منها، كلّ يوم، عدةُ قطاراتٍ نحوَ الشرق. وكان هناك قطارٌ مباشرٌ على أهبةِ الاستعدادِ للسفرِ إلى شيكاغو. فما إن صعدَ إليه فوغ وصحبُهُ حتى انطلق بهم دون أن يروا شيئاً من «أوماها». وما أسرعَ ما نقلَهُمْ ذلك القطارُ إلى ولاية «إيووا». وفي أثناء الليلِ اجتازَ نهرَ المسيسبي عند «دافنبورت»، ثم دخلَ إلى ولاية «ايلينوي» عن طريق «روك أيلند». وفي الرابعةِ من مساء اليوم التالي، العاشرِ من كانونَ الأولِ، وصل إلى مدينة شيكاغو الناهضة بكبرياء على ضفافِ بحيرةِ «ميتشيغن» الرائعة.

القطاراتُ متوفرةٌ في شيكاغو التي تبعُدُ عن نيويورك تسعمئةِ ميل. وسُرعانَ ما ركبَ فوغ ومن معهُ أحدَ القطارات السريعة، فمضى ينهبُ بهم الأرض، مجتازاً ولايات إنديانا وأوهايو وبنسلفانيا ونيوجرزي، ماراً بمدنٍ لها أسماء قديمة، بعضها عامرٌ وبعضها فيه شوارعُ وخطوطُ ترامٍ وليس فيه منازل. وأخيراً ظهرَ نهرُ الهدسون. وفي الساعة الحاديةِ عشرة والربع من مساء اليومِ التالي، أي ١١ كانون الأول، وصل إلى نيويورك. ولكنَّ الباخرةَ «شاينا» كانت قد غادرتِ الميناء إلى ليفربول قبل ذلكَ بخمسٍ وأربعينَ دقيقة.

٣٢. فوغ يقاوم سوء الحظ

مَضَتِ الباخرةُ «شاينا» وكأنّها حمَلَتْ معَها آخرَ أملٍ لفيلِيَس فوغ في العودةِ إلى لندن قبلَ الموعد المضروب. فالسفينةُ الفرنسيةُ «بيرير»، التي تَعْبُرُ الأطلنطي، كان مَوْعِدُها بَعْدَ يومَيْن. أما السفنُ الأخرى فلا تَذْهبُ توّاً إلى ليفربول أو لندن، بل إلى ميناء «الهافر». والانتقالُ من الهافر إلى سوثمتون سيؤخرُ صاحبنا عن موْعِدِه. وهناكَ سُفنٌ أخرى لا يمكنُ الاعتمادُ عليها لأنها بطيئةٌ غايةَ البطء.

وبينما كان فوغ يُطيلُ النظرَ في القائمة التي يحملُها، والتي تتضمّنُ أسماء السّفنِ ومواعيدَها وكافّةَ المعلومات عنها، كان باسبارتو يَلْعَنُ نفسَهُ لأنهُ هو السببُ في كلِّ تأخيرٍ تعرّضَ له سيّدُهُ، كأنهُ يَبُثُّ العراقيلَ عن عمْدٍ، في طريقِه.

أخيراً قال فوغ:

«سنفكرُ في الأمرِ غداً!»

وبعد أن اجتازوا نهرَ الهُدْسون بالمركب أخذوا عربةً نقلَتْهُمْ إلى فُنْدق «سانت نيقولا» في برودواي، حيث أمضَوْا تلكَ الليلة.

كان اليومُ التالي هو الثاني عشر من كانونَ الأول.

ومن السابعة صباحاً من هذا اليوم حتى الثامنة وخمس وأربعين دقيقة من مساء يوم ٢١ يبقى أمام فيليس فوغ تسعة أيام وثلاث عشرة ساعة وخمس وأربعون دقيقة . ولو أنه أدرك « الشاينا » ، التي تعد من أسرع البواخر العابرة للمحيطات ، لتوصل في الموعد المعين .

غادر السيد فوغ الفندق بمفرده بعد أن أوصى خادمه بأن ينتظره ، ويطلب من السيدة فوغ أن تكون على أهبة الاستعداد . وذهب إلى ضفاف الهدسون يفتش عن السفن المسافرة في ذلك اليوم ، إذ لا يمر يوم إلا وينطلق ، من ميناء نيويورك العظيم ، ما لا يقل عن مئة سفينة إلى مختلف بقاع الأرض ، ولكن أغلب هذه السفن لا تفي بغرض فيليس فوغ .

وأوشك أن يفقد الأمل . وفجأة وقعت عينه على سفينة تجارية بخارية ذات شكل دقيق يدل على سرعتها الكبيرة . وكان الدخان يتصاعد من مدخنتها ، مما يدل على أنها تستعد للإقلاع . وسرعان ما ركب فوغ قارباً توجه به إلى « الهنرييتا » — وكان هذا هو اسم تلك الباخرة . ولما أصبح على ظهرها طلب الربان، وهو رجل في الخمسين من العمر يدل مظهره على أنه من رجال البحر المحنكين . ولما تقابل الرجلان قدم فوغ نفسه بقوله :

« فيليس فوغ ، من لندن » .

— « وأنا اندرو سبيدي ، من كارديف . »

— « هل أنت على أهبة السفر ؟ »

— « بعد ساعة سنقلع ! »

— « إلى أين ؟ »

— « بوردو ! »

— « ماذا تحمل معك ؟ »

— « ليس لدينا حمولة ! »

— « وهل معك مسافرون ! »

— « كلا ! .. إننا لا ننقل المسافرين ، بل البضائع ! »

— « هل سفينتك سريعة ؟ »

— « سرعتها ما بين إحدى عشرة واثنتي عشرة عقدة ! »

— « هل لك أن تنقلني وثلاثة أشخاص آخرين إلى ليفربول ؟ »

— « إلى ليفربول ؟ ! ولم لا أنقلكم إلى الصين ؟ »

— « قلت ليفربول ! »

— « كلا ! »

— « كلا ؟ »

— « كلا ! إن وجهتي بوردو ! »

— « مهما كان الأجر ؟ »

— « مهما كان الأجر ! »

— « من هو صاحبُ السفينة ؟ »

— « أنا ! »

— « إنني مستعدٌ أن أستأجرَها ! »

— « لن أؤجرَها ! »

— « بِعني إياها ! »

— « لا أبيعُها ! »

حتى تلك اللحظة سهّلَ المالُ لفيليّس فوغ كل أمرٍ عسير ، أما الآنَ فهو يَصْطدِمُ بحاجزٍ قويٍ . خطَرَتْ لفوغ فكرةٌ جديدةٌ فقال للقبطان :

« حسَناً ! هل تنقلني معَكَ إلى بوردو ؟ »

— « كلا ! حتى ولو دفعتَ لي مئتي دولار ! »

— « أدفعُ لكَ ألفَيْن ! »

— « عن كل شخص ؟ »

— « عن كل شخص ! »

إزاء هذا بدأ القبطانُ سبيدي يَحُكُّ جَبْهتَه . فإن ثمانيةَ آلاف دولار تستحق أن تُسْكِتَ مرةً في الزمان نفورَهُ من نقلِ المسافرين . على العموم لم يَعُدْ هؤلاء المسافرونَ الأربعةُ مجرّدَ مسافرين : لقد تحوّلوا إلى بضاعةٍ ثمينة . قال القبطان :

« سأقلعُ في التاسعة ، فإن كنتم على استعداد ... »

— « سنكون هنا في التاسعة ! »

كانت الساعةُ في تلك اللحظة الثامنةَ والنصف . فأخذَ فوغ عربةً ، وبهدوئه المعتاد ذهبَ إلى فندق « سانت نيقولا » ، وعادَ بالسيدة آوودا وباسبارتو ، وحتى « بالظل » الذي لا يفارقُهُ ، مفتشِ الشرطة .

وبينما كانتِ السفينةُ تستعدُّ للإقلاعِ كانَ الجميعُ قد أصبحوا على متْنِها . وعندما عرَفَ باسبارتو قيمةَ تكاليفِ الرحلة ، أطلقَ صيحةَ استنكار . أما فيكس فقد قال بينَهُ وبين نفسه إن مصرِفَ انكلترا سيَخْسَرُ على الأقل سبعةَ آلافِ جنيه ، إن لم يرمِ فوغ حفنات أخرى في البحرِ قبلَ الوصولِ إلى بريطانيا .

٣٣ . فوغ على مستوى الاحداث

بعد ساعةٍ من الزمن تخطّتِ « الهانرييتا » المنارَةَ التي تحدّدُ مدخل الهدسون ، ودارتْ حول رأسِ « سندي هوك » ، ثم استقبلتِ البحرَ . وفي أثناء النهارِ سارتْ على طول « لونغ ايلند » ، ومن ثَمّ جرتْ نحو الشرق .

وظُهرَ اليوم التالي ، ١٣ كانون الأول ، صعدَ جلٌ إلى الطبقة العُليا للسفينة من أجلِ المراقبةِ والتحققِ من النظام . وقد يَظُنُ القارىء أن هذا الرجلَ هو القبطان سبيدي .. كلا ! ثم كلا ! فلم يكن ذاكَ سوى السيد فيليس فوغ ! أينَ القبطان إذن ؟ وما الذي حَدَثَ له ؟ .. لقد كان محبوساً في حُجرتهِ ، التي أقفلَ بابها بالمفتاح . وكان يُطلقُ صرخاتٍ هائجة ، وما من مجيب !

والذي حدث إنما هو شيءٌ بسيط : فيليس فوغ يريد أن يذهب إلى ليفربول بينما يرفضُ القبطانُ أخذَهُ إليها. فوافقَ فيليس على السفر إلى بوردو . وخلالَ الثلاثين ساعةً التي قضاها على ظهر السفينة استطاعَ ، بواسطة المال ، أن يشتريَ جميعَ رجالِ السفينة ، من بحارةٍ إلى وقادينَ إلى عُمال ، وساعدَهُ على ذلك أن علاقتهم بالقبطان غيرُ طيبة ، وبذلك أصبحوا طوْعَ أمرِ السيد الانكليزي . وهذا ما يفسّرُ وجودَ فوغ في مركزِ القيادةِ بدَلَ قبطانِ السفينة ، الذي حُبِسَ في حُجرته . أما « الهانرييتا » فقد كانت مُتجِهةً إلى ليفربول لا إلى بوردو في خطّها الطبيعي . ومن يرَ فيليس فوغ كيف يتصرّفُ على ظهر السفينة يُدرِكْ تماماً أنه كان بحاراً فيما مضى من الأيام .

كيف ستنتهي هذه المغامرة ؟ ! لا أحدَ يدْري ! .. أما السيدة آوودا فكانت قلقةً ، وأما فيكس وباسبارتو فقد كان أحدُهما مصعوقاً والآخرُ في غاية الابتهاج .

الكلمةُ الآن للمحيط ، فإنْ ظلّ على ما هو عليه فإن الهنرييتا قادرةٌ على قطع الثلاثةِ آلافِ ميلٍ ، بين نيويورك وليفربول ، خلالَ الأيامِ التسعةِ ، اعتباراً من يومِ ١٢ إلى ٢١ كانون الأول . هذا بصرفِ النظر عما سيَحْدُثُ لدى وُصولِ المسافرينَ إلى ليفربول ، إذ مِنَ المتوقعَ أن تُغَطّي قضيةُ « الهنرييتا » على قضية المَصْرِف ، وتقودان كلتاهما السيد فوغ إلى أبعدَ مما يَروقُ له .

في الأيام الأولى جرَتِ الهنرييتا كعابرةِ محيطٍ من الطرّاز الأول ، إذ كان المحيطُ هادئاً والرياحُ مُواتية . بحيث تآزرَتِ الأشرعةُ مع المحركاتِ لتدفعَ سفينةَ النقلِ بنشاط نحوَ الهدف ، وكان باسبارتو في قمةِ المرحِ والحماسة . وقد أدهشَ رجالَ السفينة بحركاتهِ البهلوانية ومشروباتهِ وانفتاحهِ ، فكانوا يعملون باهتمامٍ لا حدّ له .

أما فيكس فقد أدارتْ رأسَهُ تلك الحوادث ، فلم يَعُدْ يُدْرِكُ من الأمرِ شيئاً : فوغ يستولي على السفينة..

فوغ يُسَيْطِرُ على البَحّارة .. فوغ يَقُودُ السفينةَ كأمْهَرِ رُبّانٍ ... ما نوعُ هذا الرجل ؟ ! .. على أيِّ حال يمكنُ لمن سَرَقَ مصرفاً أن يضعَ يدَهُ على سفينةٍ ، ثم يُوَجِّهُها إلى أيّةِ بقعةٍ شاء ليتحوّلَ إلى قُرصان ! .. التفسير منطقيٌّ ومعقول .. ولقد ندمَ فيكس أشدَّ الندمِ لأنه زجَّ نفسَهُ في هذه القضية .

في الثالث عشرَ مرّتِ السفينةُ على « تيرــ نوف » ولوحظَ أن ميزانَ الضغطِ قد انخفضَ فجأةً . فاضطر فوغ إلى طيِّ أشرعتِهِ وزيادةِ ضغطِ بُخارِهِ ، ولكنَّ السرعةَ انخفضتْ مع ذلك . واكفهرَّ وجهُ باسبارتو معَ الجوّ . ولكنَّ فوغ كان بحاراً جريئاً يَعْرِفُ كيف يُواجهُ البحر .

كان يومُ ١٦ كانون الأول هو اليومَ الخامسَ والسبعين منذ بدء الرحلة . ولم تكنِ السفينةُ متأخرةً تأخراً كبيراً عن موعدها ، إلا أن الرياحَ كانت تهبُّ من الجنوبِ الشرقيِّ ، فكان على الهنريتا أن تعتمدَ على محرّكاتها فقط . ولكنْ في هذا اليوم بالذات أقبلَ الميكانيكيُّ على السيد فوغ وأخبرهُ بأنّ السفينةَ قد استهلكتْ وقودَها . لقد كان فيها من الفحم ما يكفيها حتى بوردو على أساس السير تحت ضغط متوسط من البخار ، أما أن تستخدمَ جميعَ أفرانها وتزيدَ الضغطَ إلى أقصاه

لتقومَ بهذه الرحلةِ الطويلةِ إلى ليفربول ، فذلك ما لم يكُنْ في الحُسْبان .

كان الفحمُ الباقي يكفي حتى الثامن عشر . وظُهْرَ هذا اليومِ أرسلَ فوغ باسبارتو ليأتي بالقبطان سبيدي ، وذلك بعد أن درسَ على الخريطة موقعَهُ من المحيط . فجاء القبطان يُرْغي ويُزْبِد ويصيحُ بفوغ :

« يا لك من قرصان ! »

ولكنَّ فوغ قابَلَهُ بكلِّ هدوء . وعرض عليه أن يشتري سفينتَهُ ، لأنه مضطَرٌّ إلى حرْقها .. فصاح سبيدي كالمجنون :

« تُحرق سفينتي ؟ ! تُحرق سفينةً ثمنُها خمسونَ ألفَ دولار ؟ ! »

ــ سأحرقُ الخشب الذي فيها ، لأنّ الفحم قد نَفِدَ ، وأنا أدفعُ لك فيها ستين ألفَ دولار ! »

هذا العرضُ أخمدَ نيرانَ الغضبِ عند القبطان . ذلك أنّ عُمرَ سفينتِهِ عشرونَ عاماً .. فالصفقةُ إذن مُجْزِيَةٌ إلى أبعدِ حدّ . ولكن القبطان قال :

« على أن يبقى الهيكلُ الحديديُّ مِلْكاً لي ! »

ــ « الهيكل والآلات ! »

ــ « اتفقنا ! »

وَدفع فيليس فوغ المالَ ، وبدأت أعمالُ انتزاعِ الأخشابِ والصواري وكلِّ ما هو خشب ، لإشعالِه وتسييرِ السفينةِ بحرارته . ويُمكِنُ تصوّرُ حالةِ فيكس عندما دُفِعَ مبلغُ الستينَ ألفَ دولارٍ من حسابِ المَصْرِف الذي دارَ حولَ العالَمِ ليَصُونَهُ ويُعيدَه إلى مكانه .

وفي العشرينَ من الشهرِ كانتِ السفينةُ تبدو حَلِيقةً إذ كانت صواريها وأعمدتُها وعارضاتُها وأرضيّتُها ... قد أُوقِدَتْ ، ولكنَّ الساحلَ الأيرلنديَّ كان على مَرْمَى البَصَر . وفي الساعةِ العاشرةِ ليلاً كانتِ السفينةُ أمامَ « كوينزتاون » . لقد بقيَ أمامَ فوغ أربعٌ وعشرونَ ساعةً ليصلَ إلى ليفربول ، وفي أثناء ذلك ستكونُ السفينةُ دون وقود . فقال له القبطان سبيدي ، الذي بدأ يتحمسُ لمشاريعه ويَعْطِفُ عليه :

« أيها القبطان فوغ ! إنني أشفِقُ عليكَ حقاً ، لأن الحظ يعاكسُك باستمرار ، فنحن ما زلنا أمام « كوينزتاون » .

— « هل نستطيع أن ندخل المرفأ ؟ »

— « ليس قبلَ ثلاثِ ساعات ! »

— « لننتظر إذن ! »

كوينزتاون مرفأ إيرلنديٌّ تمرُ عليه عابراتُ المحيط ، فتلقي فيه بما تحمله من بريد . ويُرْسَلُ هذا البريد إلى

« دبلن » بالقطارات السريعةِ التي هي على استعداد باستمرار. ومن هناكَ يُرْسَلُ إلى ليفربول في مراكبَ بخاريةٍ ذات سرعةٍ كبيرة . وبذلك يسبقُ البريدُ باثنتي عشرةَ ساعةً عابراتِ المحيطِ السريعة ، فما بالك بهنرييتا ، السفينةِ الصغيرةِ ؟! من أجل هذا فكر فيليس فوغ أن يستخدمَ هذه الطريقةَ ، فيكون في لندن قبل الثامنةِ مساءً .

في الواحدة من الصباحِ دخلت الهنرييتا إلى المرفأ مع المدّ . فودّع فيليس فوغ القبطانَ سبيدي وهبطَ وصَحْبَه إلى الرصيف . ومرّت في خاطر فيكس فكرةٌ شيطانية ، هي أن يُلْقِيَ القبض على فوغ فوراً ، ولكنّه لم يخرجْها إلى حيّزِ التنفيذ. على أي حال رافق المفتشُ المجموعةَ ، فركبوا ، في الواحدةِ والنصف ، القطارَ السريع الذي وصلَ إلى دبلن مع الفجر . ومن هناك ركبوا زورقاً بُخارياً إلى ليفربول .

وقبل الثانيةَ عشرةَ بعشرينَ دقيقةً من صباح الحادي والعشرين من كانون الأول كان فيليس فوغ يطأ أرضَ ليفربول : لم يعد بينه وبين لندن سوى ستِ ساعات .

وهنا تقدّم منه فيكس ، وقال وهو يضعُ يدَه على كتفه ويعرضُ أمامَ عينيه مذكرةَ التوقيفِ باليدِ الأخرى:

« هل أنت المدعو فيليَس فوغ ؟ »

— «نعم . يا سيدي !»

— «باسم الملِكة ألقي عليكَ القبضَ !»

٣٤ . هل من معجزة ؟!

وُضِعَ فيليس فوغ في إحدى غرفِ الجمرك ، واعتُبِرَ سجيناً . وقد حاولَ باسبارتو أن يَنْقَضَّ على فيكس ، عندما قبضَ على سيده ، لولا أن رَدَّهُ عنه بعضُ رجال الأمن . وراح ينتحبُ لأنهُ أخفى عن السيد فوغ شخصيةَ المفتش ، فقد كان من المحتملِ أن يُثْبِتَ له براءتَهُ ، قبل أن تصلَ الأمورُ إلى هذا الحدّ .

أما السيدة آوودا فقد أذهلَتْها المفاجأة : أيُلْقَى القبضُ على الرجلِ الطيّبِ الكريمِ ، الذي أنقذ حياتَها، بتُهْمة السَّرِقة ؟! مستحيلٌ أن يكون السيد فوغ لصاً . ولكنها لم تستطعْ أن تُنْقِذَ مُنْقِذَها ، فلبثتْ في الخارج تُرْسِلُ الدموعَ السخينةَ إلى جانبِ باسبارتو .

وأما فيكس فقد قرَّ في رُوعِهِ أنه لم يَصْنَعْ سوى ما يُمليه عليه الواجب .. وللعدالةِ بعد ذلك أن تُظْهِرَ إن كان فيلِيَس فوغ رجلاً مستقيماً أم لصاً مختالاً .

والواقعُ أن فيليس فوغ قد قُضِيَ عليه في أي حال : إن كان شريفاً ، فلن تظهرَ براءتُهُ إلا بعد أن يكون

قد خسرَ الرهانَ وأفلسَ ، وإن كان لصاً فسوف يُرْسَل إلى السجن ليعيشَ مع اللصوص والقَتَلَة .

داخلَ الحجرةِ كان فوغ يجلسُ بهدوء — ظاهرِ على الأقل — وساعتُهُ أمامَهُ تسجِّلُ الدقائقَ والساعاتِ التي تمرّ ، في انتظارِ نقلِه إلى العاصمة . وقد أخرجَ مفكّرتَه وكتب فيها : «السبت — ٢١ كانون الأول ، ليفربول» . ثم أضاف : «اليوم الثمانون — الساعة ١١ و٤٠ دقيقة صباحاً .»

دقّت الساعةُ الواحدةُ في ساعة الجمركِ الكبيرة ، فنظر في ساعتِه فوجدَها متقدمةً دقيقتَيْن . لو استطاعَ أن يركب قطاراً سريعاً في هذا الوقت لوصلَ إلى لندن ، ثم إلى نادي الإصلاح قبل الثامنةِ و٤٥ دقيقة .

في الساعةِ الثانيةِ وثلاثِ دقائق ، سَمِعَ ضجيجاً في الخارج ، وميَّز في هذا الضجيج صوتَ باسبارتو وفيكس. ثم فُتح الباب وهُرِع إلى الداخل باسبارتو وفيكس والسيدة آوودا . وكان فيكس يَلْهَثُ كأنه جرى مدةً طويلة .. قال له وهو متقطعُ الأنفاس :

«سيّدي .. سيّدي .. عفواً .. شبَهٌ مُؤسِفٌ .. السارق موقوف منذ ثلاثة أيام .. أنتَ .. حُرٌّ ! ...»

فاتجه نحو مفتش الشرطة بهدوء ، ونظر إليه ، ثم

أتى بحركة ، لعلّها الحركةُ السريعةُ الوحيدةُ في حياته : أرجعَ ذراعَيْه إلى الوراء ثم سَدّدَ ضربةً مزدوجةً مُحْكَمَةً بكلتا قبضتيه إلى رأسِ الشرطيّ المسكين .
فصاح باسبارتو : « رائع ! »

وسُرْعانَ ما ركبَ فوغ والسيدة آوودا وباسبارتو عربةً إلى المحطة . ولكنّ القطارَ السريعَ كان قد غادرَ ليفربول منذ خمسٍ وثلاثينَ دقيقة . فاستأجر قطاراً خاصاً . ولكن الترتيبات ، فيما يتعلق بتأمين خلوّ الخط ، أخذَتْ بعض الوقت ، فلم يَقُمِ القطارُ إلا في الثالثة . ولكنّهُ انطلق بسرعةٍ مذهلةٍ بعد أن أسرَّ فوغ شيئاً في أذن السائق .

ومع ذلك وصلَ القطارَ إلى المحطة وساعةُ لندن تدق التاسعةَ إلا عشرَ دقائق .. إذن بعد أن قام فيليس فوغ بدورةٍ كاملةٍ حولَ الأرض ، وصل متأخراً مدةَ خمسِ دقائقَ عن الموعد : لقد خسرَ الرهان !

٣٥. ما بعد الكارثة

لو قيلَ لجيران فيليس فوغ في « سافيل — رو » إنه قد عادَ من السفر ، لما صدّقوا على الاطلاق ، فهذه دارُهُ ما زالت مُقَفَلَةَ النوافذ والأبواب . ولكنه كان

داخلَها فعلاً ، ومعه السيدة آوودا وباسبارتو . لقد تلقّى هزيمتَهُ ومصيبتَهُ بصبر ، ولم يَخرُجْ عن هدوئهِ المعهود . فالمبلغُ الضخمُ الذي حمله معَهُ لم يَبْقَ منه سوى القليل . والعشرونَ ألفَ جنيه المُودَعة في مصرف « بارينغ إخوان » ستذهبُ إلى جيوب زملائه في نادي الاصلاح . صحيحٌ أن قيمة الرهان ما كانت لتجعل منه ثرياً ، في المعنى الصحيح ، لو أنه كان هوَ الرابح — لأنه لم يراهن من أجلِ المال بل من أجل الشرف — ولكنَّ خسارةَ هذا المبلغ قد ألقَتْهُ في وَهْدَةِ الإفلاس .

في صباح اليوم التالي دعا فوغ خادمَهُ إليه وأوصاه بأن يُعْنى بالسيدة آوودا ، ويعتذرَ له منها لأنه مشغولٌ بتنظيمِ بعضِ الشؤون ، وسيهبطُ بعد العشاء ليتحدّث إليها . فمضى باسبارتو ليُبلغَ الضيفةَ ما قاله سيده . بالطبع كانت حالةُ السيدة آوودا وباسبارتو في غاية السوء .. وخاصةً هذا الأخير إذ اعتبر نفسه مسؤولاً عن خراب السيد فوغ .

في ذلك اليومِ — الأحد — ظلّ المنزلُ مغلقاً ، ودقّتْ ساعةُ البرلمان الحاديةَ عشرةَ والنصف ، ولم يَخرُجْ فيليس فوغ كعادتهِ ليذهبَ إلى النادي . ولمَ يذهَبُ ؟!.. كان عليه أنْ يتوجّهَ في اليوم السابق ، في الثامنة و٤٥ دقيقة ، إذ كان زملاؤهُ في انتظارهِ .. أما الآنَ فكل

شيءٍ قد انقضى .

ولازمَ فوغ غرفتَهُ بينما كان باسبارتو يصعَدُ الدرجَ ويهبطُ متوقّعاً في كلّ لحظة أن تحدُث كارثة . في الساعةِ السابعةِ والنصف أرسلَ فوغ خادمَهُ إلى السيدة آوودا يسألها إن كانت مستعدة لاستقباله . وبعد دقائق أقبل إلى الغرفة التي خُصّصَت للضيفة ، وجلس قبالتَها ، بالقرب من المدفأة . لم يكنْ على وجهِهِ أيّ أثر للانفعال. ولكنه ظل صامتاً طيلةَ خمسِ دقائق ثم بدأ كلامه قائلاً :

« عفوَكِ عني ، يا سيدتي ، لأنني أتيتُ بكِ إلى انكلترا ! »

قالت وقلبُها يدقّ بعنفٍ في صدرها :

« سيد فوغ ! ...» . فاستطرد يقول :

« عندما فكرتُ في إبعادك عن المنطقةِ التي كنتِ فيها معرّضةً للخطر ، كان لديّ مال ، وكنتُ أفكّرُ أن أضَعَ جزءاً منه تحت تصرّفك .. أما الآن فقد أفلستُ . »

— « إنني أنا التي أعتذرُ إليك ، فلقد أسهَمْتُ في إفلاسك ، لأنك تأخرتَ بسببي ! »

وبعد أن عرَضَ عليها أن تَقْبَلَ الشيءَ القليلَ الذي بقيَ له لتستعينَ به على الحياة ، نهضتِ السيدة آوودا

ومَدّتْ إليه يدَها وقالت :

« سيد فوغ هل تَقْبَلُ بي زوجةً ؟ »

ونهض فوغ بدَوْرِه وفي عينَيْهِ ما يُشْبِهُ البريق ، وفي شفتَيْهِ شيءٌ من الارتعاش . وأخذَ يدَها ، وأطبَقَ عينَيْهِ لحظةً ثم فتحهما وقال :

« أنا أحبّكِ ! أنا مِلْكُ يمينكِ ! »

هكذا تكلّمَ هذا الرجل المُغْلَق ، الذي كان قلبُه ممتلئاً بالعواطف الخفية التي لا تتسربُ إلى الخارج .

ودخلَ باسبارتو في تلك اللحظة ، فرآهما وقد أمسكَ كل منهما بيدِ الآخر ، فطار من الفرح . وطلب إليه فوغ أن يذهبَ إلى القس صموئيل ويلسون .. ثم سأل خطيبتَهُ :

« غداً الاثنين ؟ »

— « غداً الاثنين ! »

فخرجَ باسبارتو يعْدو إلى منزلِ القس ليحدّدَ موعدَ الزواج .

٣٦ . المفاجأة الكبرى

عندما علم الرأيُ العامّ في انكلترا بإلقاء القبضِ على السارقِ الحقيقي ، الذي استولى على ٥٥ ألف جنيه من

المَصْرِف الوطني ، أصبح فيليس فوغ في نظره أشرفَ رجلٍ يقوم برحلة عجيبة حول العالم طبقاً لحسابات دقيقة لا تخطىء . وكان لذلك في الصحف ضجةٌ أيّ ضجةٍ .. الذين راهنوا مع فوغ أو ضده . ونسُوا تلك القضيةَ ، عادوا إلى الظهور بقدرة قادر . والأسهمُ التي ماتت منذ زمنٍ نُشِرَت مرّةً أخرى بل عُقِدَتْ رهاناتٌ جديدة . وأصبح فيليس فوغ موضوعَ الساعة في الصحافة البريطانية .

أما زملاء فيليس الخمسة ، الذين عقدوا معَهُ الرهان. فقد عاشوا الأيامَ الثلاثةَ الأخيرةَ في قلق دائم . ها هو فوغ الذي نسُوه يظهرُ لأعينهم مرةً أخرى . وتساءلوا ، يومَ ١٧ كانون أول ، أي يوم إلقاء القبضِ على سارق المصرف ، أين يوجد فيليس فوغ الآن . وهل يظهر يا ترى ، يوم السبت في ٢١ كانون الأول في الساعة الثامنة و٤٥ دقيقة ؟ وأرسلَتِ البرقياتُ إلى أميركا وآسيا للوقوفِ على أخبارِ الرجل الغامضِ الذي لم يتلقَّوا عنه أيَّ نبأ . وكُلّف المراقبون بالطوافِ حولَ منزلهِ في « سافيل رو » صباحَ مساء .. حتى البوليس لم يكن يعرفُ شيئاً عن ذلك المفتش ، فيكس ، الذي جرى وراءه خطأً ، يجوب قارات الأرض .

وفي مساء السبت ٢١ كانون الأول اجتمع المراهنون

الخمسة : صاحبا المصارفِ جون سوليفان وصموئيل فالانتين والمهندس اندرو ستيوارت وغوتيه رالف عضو مجلس الإدارة بمصرف انكلترا وصانع الخمور توماس فلاناغان . وعندما دقت الساعةُ الثامنةَ وخمساً وعشرينَ دقيقة ، نهض ستيوارت وقال :

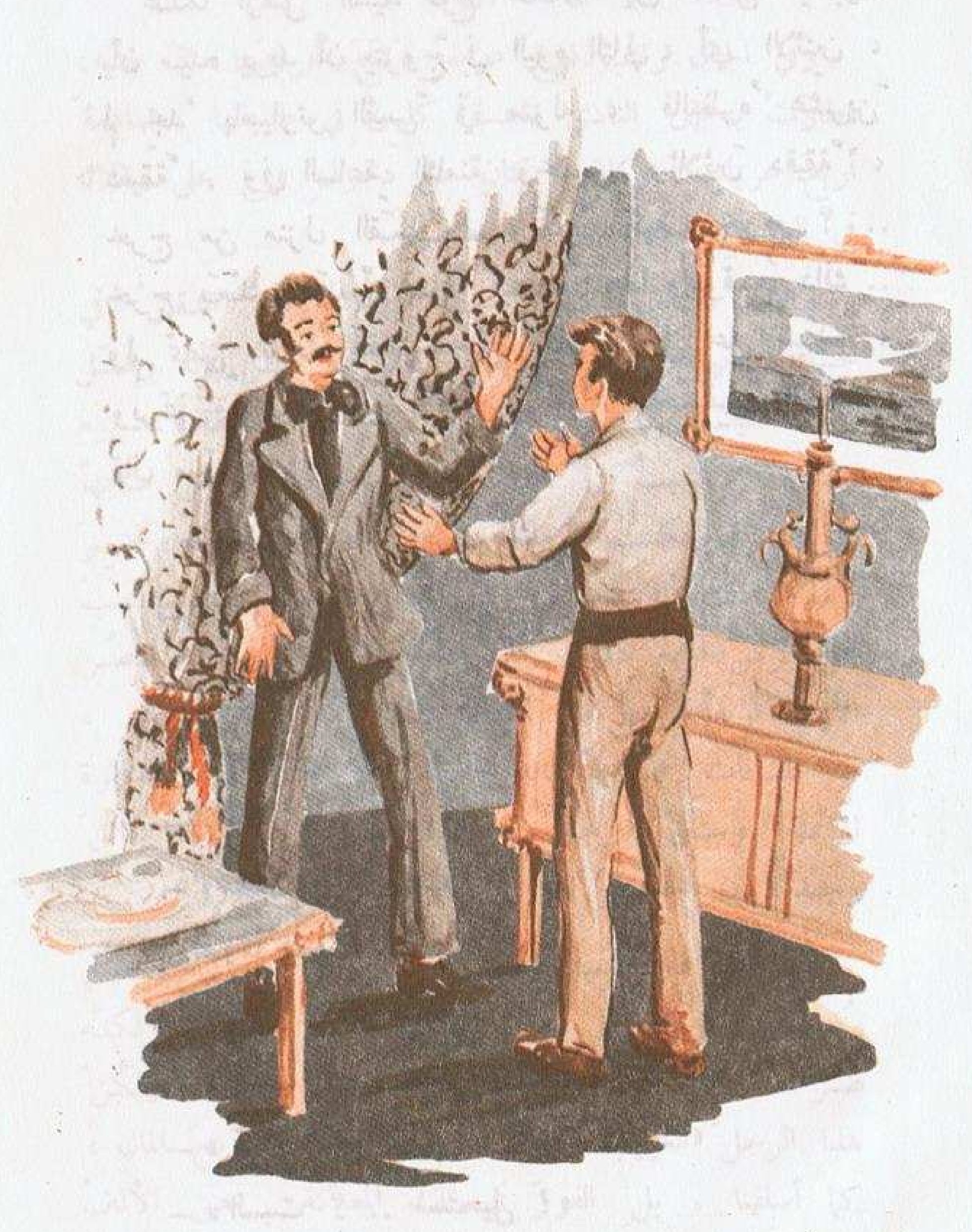
« أيها السادة ! بعد عشرينَ دقيقةً سينتهي الموعدُ المضروبُ بيننا وبين السيد فيليس فوغ ! »

فلاناغان : « في أيّ ساعةٍ وصَلَ آخرُ قطارٍ من ليفربول ؟ »

رالف : «في السابعة وثلاث وعشرين دقيقة ، والقطارُ القادمُ موعدُهُ منتصفُ الليل . »

ستيوارت : « لو أن فيليس فوغ وصَلَ في قطار السابعة و٢٣ دقيقة لجاء إلى هنا ! .. إذن يمكننا أن نعتبر أننا كسبْنا الرهان ! »

فالنتان : « لننتظر .. علينا ألا نقولَ الكلمةَ النهائية الآنَ ! .. نحن نعرفُ أن زميلَنا رجلٌ غريبُ الأطوار ، ودقّتُهُ في كلّ أمر معروفةٌ لدي الجميع ، فهوَ يصلُ دائماً على الوقت ، لا متقدّماً ولا متأخراً ، ولن أدهشَ أبداً إذا ظهَرَ اليومَ في الدقيقة الأخيرة . »



المفاجأة : اليوم هو السبت وليس الاحد

ستيوارت: « أما أنا فلن أصدّقَ حتى لو رأيتُهُ داخلاً !
أنتم تعرِفونَ أن عابرةَ المحيطِ الوحيدةَ
التي كان في إمكانِهِ أن يصلَ في الموعد
لو ركبَها ، وهي « الشاينا » قد وصلَتْ
أمس ، وليس اسمُهُ بين ركابها ، وهاكُم
قائمةَ الأسماء في صحيفةِ « شيبنغ غازيت » .

في هذه اللحظة كانت الساعةُ تسجِّلُ الثامنةَ واربعين دقيقة . فنظر الزملاء إلى بعضهم ، ولعلَّ قلوبَهُم كانت تخفقُ آنذاك .. فجلسوا إلى مائدة اللعب ، ومرت دقيقتان ثم ثلاثٌ ثم أربع .. لم يبقَ سوى دقيقة واحدة لكي يكسبوا الرهان .. أصبحَ الحسابُ بالثواني .. أربعونَ ثانيةً ، لا شيء .. خمسون .. لا شيء أيضاً . في الثانيةِ الخامسةِ والخمسين انفجرتْ في الخارج صاعقةٌ من التصفيق .. في الثانيةِ السابعةِ والخمسينَ فُتِحَ الباب ، وظهَرَ فيليس فوغ يتبعُهُ جمهورٌ تكاد الحماسةُ تفقدُهُ الصواب . قال فيليس فوغ بصوتِهِ الهادىء :
« هأنذا ، أيها السادة ! »

٣٧ . المكسب الوحيد: السعادة

كان ذلك هو فيليس فوغ نفسه ! فكيف جرتِ الأمور ؟

عندما أرسلَ السيد فوغ خادمَهُ إلى القَسّ ليخبرَهُ بأن سيده يريد أن يتزوجَ في اليوم التالي ، أي الاثنين ، لم يجدْ باسبارتو القسّ في منزله ، فانتظرهُ عشرينَ دقيقةً . وفي الساعةِ الثامنةِ وخمسٍ وثلاثينَ دقيقةً ، خرج من منزل القَسّ . ولكنْ كيف خرج ؟ .. خرج يَعْدو عَدْواً مجنوناً فيصدمُ هذا ويُوقِعُ ذاك .. ولم تمضِ ثلاثُ دقائقَ حتى كان يدخل على سيّده ، ويرتمي على الأرض لاهثاً مُرْتجفاً مُختَقِنَ الوجه . قال سيّدُهُ :

« ما الخبر ؟ ماذا جرى لك ؟ »

— « الزواج ... »

— « ما باله ؟ »

— « مستحيل ! .. »

— « لماذا ؟ »

— « مستحيل غداً ... »

— « وما السبب ؟ »

— « غداً .. الأحد ! »

— « كيف ؟ .. غداً سيكون الاثنين ! »

— « كلا ! .. اليوم .. السبت ! .. »

— « السبت ؟ .. مستحيل ! »

— « بلى ! .. بلى .. بلى ! .. »

وفي الحال ركبَ فوغ عربةً دَفَعَ لحوذيّها مئةَ جنيه ، فطارَتْ به إلى النادي داهسةً كلبينْ في طريقها ، صادمةً أربعَ عربات . وكان ما كانَ من دخولِ فوغ على زملائه في الوقتِ المحدّد ، كما أسلَفْنا .

والآن نتساءل كيف أخطأ هذا الرجلُ الدقيقُ في حساباته حتى الهوَس ، بيوم كامل ، فظنّ أنه وصَلَ يومَ السبت بينما كان وصولُهُ ، في الحقيقة ، يوم الجمعة ؟ السببُ في ذلك أنه دارَ حول الأرض متجهاً نحو الشرق فكسبَ يوماً ، ولو اتجه نحو الغرب لخسِرَ يوماً . ذلك أنه بتحركِهِ في اتجاهِ الشمسِ كان يكسبُ على الزمن أربعَ دقائق كلّما قطع درجة ، وهكذا تقصُر الأيامُ أربعاً أربعاً من الدقائق بقدر ما يقطع ، هو ، من المسافاتِ محسوبةً بالدرجات . ولا يخفى أن في الدائرة ثلاثمئة وستّينَ درجةً ، فاذا ضربناها بأربعِ دقائقَ وجَدْنا أن الحاصلَ هو أربعٌ وعشرونَ ساعة .

إذن فقد فازَ السيد فيليس فوغ ، وربحَ المبلغَ الذي وُضعَ في الرهان ، وهو عشرون ألف جنيه . ولكنّه صرَفَ خلالَ الرّحلة نحو تسعةَ عشرَ ألفاً . ولكنّ هذا الرجلَ الغريبَ الأطوارِ . لم يَقْصِد ربحَ المال ، كما أسلفنا ، بلِ الفوزَ في تلك المعركة . حتى الألفُ

جنيه الباقيةُ قسَمها بين باسبارتو ومفتشِ البوليس المسكين ، الذي تحمّلَ المشاقّ في سبيلِ أداء الواجب وإلقاء القبض على مَنْ كان يعتقد أنه هو السارق . ولكنه ، نظراً إلى دِقّتِهِ في كل شيء ، حَسَمَ من مكافأة خادمه ثمنَ الغاز خلالَ ألف وتسعمئة وعشرينَ ساعةً ، لأنَّ الغازَ ظل مشتعلاً نتيجةً لإهماله ، فعليهِ أن يتحمّلَ الخسارةَ .

بعدَ الانتصارِ عادَ فوغ إلى المنزلِ وسألَ السيده آوودا :

« هل أنتِ ما تزالينَ عند موقفِكِ من مشروعِ الزّواج ؟ »

قالت : « أنا التي أطرح عليك هذا السؤال ! »

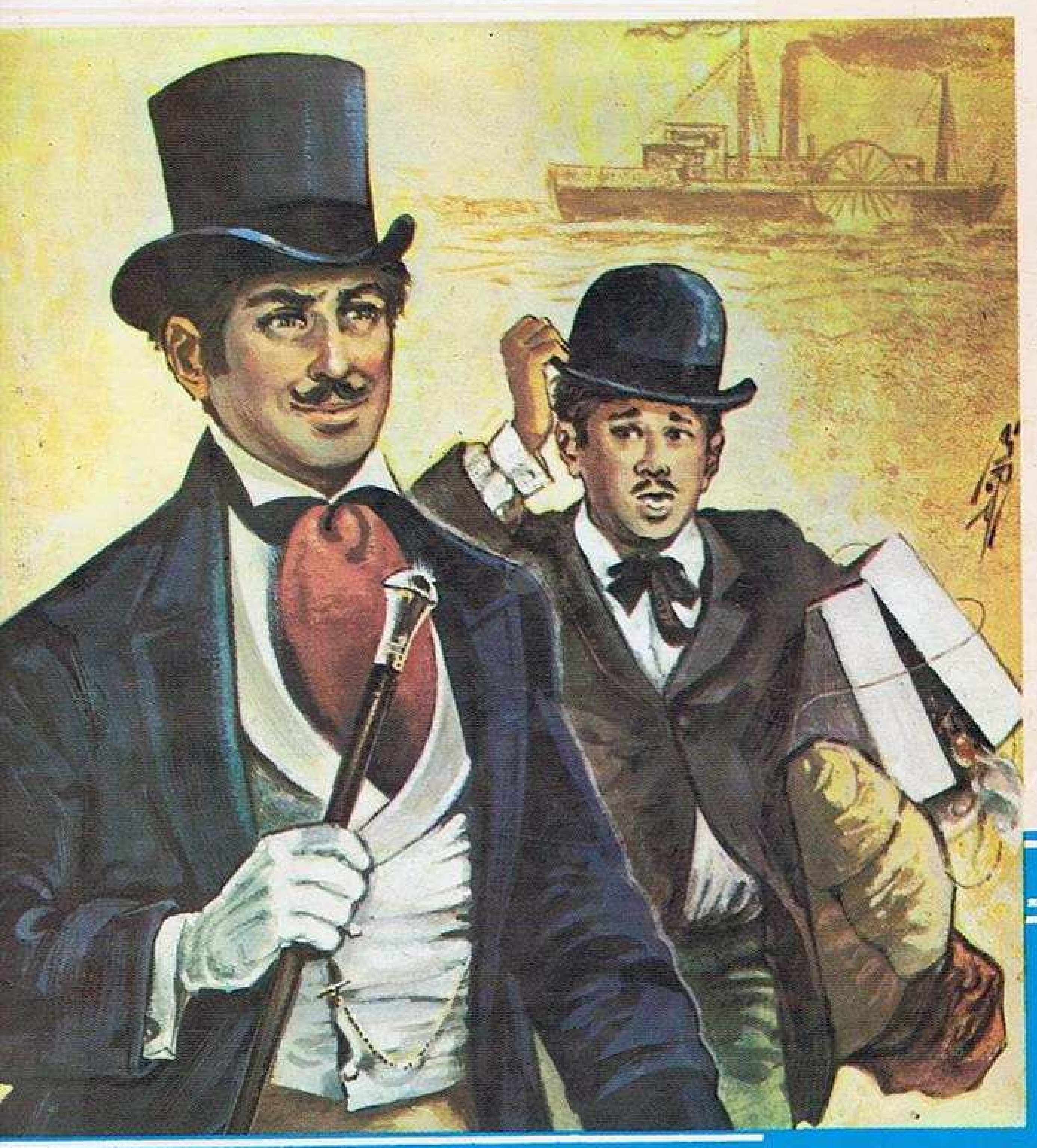
بعد يومين أقيمتْ حفلةُ الزّفاف وكان الشاهد هو ذلك الشابّ الفرنسيّ الطيّب ، الذي انتشلَ السيدة آوودا من بين النيران .

انتهى

الفهرس

حول العالم في ثمانين يوما

المكتبة العالمية
للفتيان والفتيات



دار العلم للملايين
بيروت